الصورة البيانية
في ديوان
الإمام محمد عبده

إعداد
الدكتور / أحمد فريد أبو سالم
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
في جامعتي (الأزهر والملك سعود)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فإن للبلاغة أثراً عظيماً في تصوير المعاني والانفعالات، والمشاعر والأحاسيس؛ حيث إن" أبواب التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية – منها خاصة – تفسح المجال أكثر من غيرها لضروب التصوير الأدبي، كما تتيح للخيال الجو الطلق الرحيب؛ ليمكنه أن يحلّق في الآفاق"[١].

والصورة لها ــ في الأدب عامة، وفي رحاب الشعر خاصة ــ شأن كبير،ومنزلة جليلة ؛ إذ من خلالها يكون الحكم على الأديب أو الشاعر، " فالمعاني عامة لدى جميع الناس، ومنهم الشعراء، ولكن العبرة في مدى قدرة الشاعر على صوغ هذه المعاني في ألفاظ، وقدرته على تصويرها، وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أُبْرِزَ فيه، وكم من معرض حسن قد ابتُذِل على معنى قبيح ألبسه، وبقدر ما يستطيع الشاعر نقل معانيه في صور حيَّة، وبقدر تمكنه من صياغة هذه المعاني، يحكم على شاعريته"[٢].

---

[١] ــ الصورة الأدبية في القرآن الكريم ص٧٤د. صلاح الدين عبد التواب.ط: مكتبة لبنان ناشرون ــ ط: ١٩٩٥م.

[٢] ــ الصورة في شعر بشار بن برد ص٥٣ د.عبد الفتاح صالح نافع.ط: دار الفكر – عمان.ط: ١٩٨٣م، وعيار الشعر ص٣ لابن طباطبا، ط: المكتبة التجارية ــ مصر.ط: ١٩٥٦م.

هذا، ولَّما كانت الصورة من بين الأساليب البلاغية التي اعتمد عليها الإمام محمد عبده ــ رحمه الله ــ في ترجمة معانيه وأفكاره، وتصوير مشاعره وأحاسيسه، وهواجس نفسه وخواطرها، أردت التوقف أمامها لدراستها، والتعرف على دورها في هذا التصوير.

وكان الدافع وراء اختيار هذا الموضوع، عدة أمور من أهمها:

تأثر الإمام في تصويره بالصورة القرآنية.

تميز شعره بالصدق والبعد عن الغلو أو المبالغة الكاذبة، وقد أثر عنه ــ رحمه الله ــ أنه قال:" الشعر إذا لم تكن ألفاظه آخذة بجزء من روح الشاعر فليس بشعر"[١].

أنَّه كان يصور آلام أمته من منطق الحرص والخوف عليها، فجاءت الصورة البيانية تعكس وتحكي ما يدور بداخله من هموم وأحزان[٢].

ما عُرِف عنه من أنه من العلماء المصلحين المجددين، ولم يعرف عنه بأنه شاعر، فأحببت أن أبرز جانباً من الصور التي تشهد له بالشاعرية.

لهذه الدوافع وغيرها كان اختيار هذا الموضوع للدراسة والمعالجة، وجاء تناوله تحت عنوان" الصورة البيانية في ديوان الإمام محمد عبده".

هذا، وقد اقتضت معالجة هذا الموضوع أن يأتي في: مقدمة،

---

[١] ــ انظر: الديوان ص ٥٧.

[٢] ــ من أجل ذلك استحق الشاعر أن يُقال له شاعر، كما قال ابن رشيق:" إنَّما سُمِّي الشاعر شاعراً؛ لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره". راجع العمدة ١١٦/١، تحقيق/ محمد محيي الدين، ط:١٩٦٣م.

وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وأخيراً ثبت المصادر والمراجع، ثم ذيلت البحث بفهرس للموضوعات.

أما المقدمة فقد ذكرت فيها الدوافع التي كانت وراء اختيار هذا الموضوع ليكون محلاً للدراسة، ثم خطة السير فيه.

وأما التمهيد فتناول نقطتين: الأولى: نبذة مختصرة عن سيرة الإمام ودعوته الإصلاحية.

والأخرى: تناولت التعريف بالديوان محل الدراسة.

وأما المبحث الأول: فتناول الصور البيانية التي جاءت في سياق حديثه عن تصوير آلامه وهمومه وهو في السجن.

وأما المبحث الثاني: فعالج الصور البيانية التي وردت في سياق حديثه عن الثورة العرابية.

وأما المبحث الثالث: فتعرض للصور البيانية التي جاءت في سياق حديثه عن حبه لدينه ووطنه.

وأما الخاتمة: فكانت رصداً لأهم النتائج التي توصل إليها البحث.

وبعد، فهذا تحليل موجز للصورة البيانية لشعر واحد من العلماء، أرجو أن يكون قد أصاب الهدف، وأتى على المراد، ووفّى بالغرض المنشود، وإن كانت الأخرى، فحسبي أنني أخلصت النية، وصدقت في العمل.

والله أسأل أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلاً

ويرزقنا اجتنابه، وألا يجعله ملتبساً علينا فنضلّ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، وما التوفيق إلا من عند الله، عليه توكلت وإليه أنيب، وهو حسبي ونعم الوكيل.

الرياض: الخميس ٢٩ من جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ

الموافق ٩ من مايو ٢٠١٣م.

الباحث

دكتور/ أحمد فريد أبو سالم

التمهيد

ويتناول الحديث عن نقطتين:

الأولى: عن الإمام محمد عبده من حيث:

اسمه ونسبه.

مولده ونشأته.

شيوخه وتلامذته.

أهم أعماله والمناصب التي تولاها.

آثاره ومؤلفاته.

دعوته الإصلاحية.

موقفه من الثورة العرابية.

وفاتـــــــــه.

والأخرى: عن ديوان الإمام.

أولا: اسمه ونسبه[١]:

هو الشيخ الإمام محمد بن عبده بن حسن بن خير الله، من آل تركمان، فأبوه تركماني الأصل، وأمه مصرية تنتمي إلى قبيلة" بني عدي" العربية.

ثانياً: مولده ونشأته:

ولد ـ رحمه الله ـ في عام(١٢٦٦هـ ـ١٨٤٩م) في قرية"محلة نصر"٢ التابعة لمركز شبراخيت بمحافظة البحيرة، وأحب في صباه الفروسية والرماية والسباحة، وكان أبوه صاحب مكانة عالية في القرية، وقد وجهه إلى كتّاب القرية لحفظ كتاب الله، وبعد أن أتمّ حفظه وهو في التاسعة من عمره، أرسله إلى الجامع الأحمدي بطنطا لدراسة التجويد والعلوم الدينية الأخرى من فقه وتفسير ونحو إلى آخره، لكن أسلوب

---

[١] ـ راجع في الحديث عن حياة الإمام بالتفصيل: الأعلام للزركلي ٢٥٢/٦، مذكرات الإمام محمد عبده جمع وتحقيق/طاهر الطناحي ص١٠، معجم المؤلفين١٠/٢٧٢، المستدرك على معجم المؤلفين ص٦٩٥، محمد عبده للعقاد ص٦٠، عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده للعقاد ص٥٤، زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين ص٣٠٢، رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده د.عثمان أمين ص٣٣، سلسلة أعلام الإسلام: الإمام محمد عبده لعبد الحليم الجندي ص٧، سلسلة الأعمال المجهولة لمحمد عبده تحقيق د. علي شلش ص٨، أعلام الفكر العربي/ الإمام الشيخ محمد عبده في أخباره وآثاره د. رحاب عكاوي ص٢٢، الإمام محمد عبده وأثره في تجديد الفقه والفكر الإسلامي د. كمال الدين عبد الغني ص٩، وغير ذلك كثير.

[٢] ـ أشير هنا إلى أنّ صاحب كتاب" الأعلام" قد ذكر إلى أنّ مولد الإمام كان في قرية"شنرا"، وهي إحدى قرى محافظة الغربية، بينما كانت نشأته في قرية" محلة نصر" بمحافظة البحيرة. الأعلام ٢٥٢/٦. وقال آخرون: إنها قرية" حصة شبشير"، راجع محمد عبده للعقاد ص٦٠، وغيره.

الدراسة العقيم لتلك العلوم ـــ والذي كان يعتمد على المتون والشروح التي تخلو من التقنين البسيط للعلوم، وتفتقد إلى الوضوح في العـــرض ـــ جعله يعجز عن استيعابها، لكنّ أباه أصرَّ على مواصلته للتعلـــيم، الأمـــر الذي دفعه إلى الهروب إلى أخواله في قرية قريبة لقريته، فالتقى هناك بخال أبيه وهو الشيخ" درويش خضر"، الذي لفت أنظاره إلى أهمية دراسة هذه العلوم، ثمَّ أزال له طلاسم تلك المتون، فوضحها وقرَّبها إلى عقله بسهولة ويسر، فأعاد بذلك الثقة إلى نفسه، ورجع إلى الجامع الأحمدي لمواصـــلة الدراسة فيه مرة أخرى.

وفي عام(١٢٨٢هـــ ـــ ١٨٦٥م) قصد القاهرة للالتحاق بـــالأزهر الذي كان غاية كل متعلم، وهدف كل دارس، فدرس فيه العلوم الشرعية والعربية، ومكث فيه لمدة ثلاث سنوات، لكن لّما كانت طريقة التـــدريس فيه تنصبُّ بالدرجة الأولى على المتون والحواشي والشروح، فلم ترق لـــه الدراسة فيه، فتركه، ولمّا التقي مع صديقه "جمال الدين الأفغاني"، شجعه مرة أخرى على مواصلة الدراسة في الأزهر، وظل فيه لمدة اثـــني عشـــر عاماً؛ حتى نال شهادة العالمية منه عام"١٢٩٤هـــ ـــ ١٨٧٧م"، وقـــد أتقن ـــ رحمه الله ـــ اللغة الفرنسية بعد أن بلغ الأربعين من عمره، ولّمـــا تمكّن منها، اطلع على القوانين الفرنسية وشروحها، وتـــرجم كتابًـــا في التربية من الفرنسية إلى العربية، بالإضافة إلى ذلك فقد مارس ـــ رحمه الله ـــ التصوف منهجاً سلوكياً، والفلسفة منهجاً فكرياً.

يقول عنه تلميذه وصديقه وأقرب الناس إليه، الشيخ رشيد رضـــا:"

إن هذا الرجل أكمل من عرفتُ من البشر ديناً وأدباً ونفساً وعقلاً وخلقاً وعلماً وعملاً وصدقاً وإخلاصاً، وإنَّ من مناقبه ما ليس له فيه نـد ولا ضريب، وإنه لهو السري الأحوذي العبقري"[١]، ثم يقول عنه أيضاً:" إنه سليم الفطرة، قدسي الروح، كبير النفس، وصادف تربية صوفية نقية، زهدته في الشهوات والجاه الدنيوي، وأعدته لوراثة هداية النبوة، فكان زيته في زجاجة نفسه صافياً، يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار"[٢].

ثالثاً: شيوخه وتلامذته.

كان للإمام ـــ رحمه الله ـــ شيوخ أثروا حياته وأثَّروا فيها كثيراً، من هؤلاء:

١ـــ خال أبيه الشيخ" درويش خضر"، هذا الشيخ الصوفي كان له أكبر الأثر في تغيير مجرى حياة الإمام؛ إذ هو الذي أعاد الثقة إليه، وذلك بشرحه له ما استعصى عليه فهمه من العلوم الشرعية والعربية التي كان يدرسها في الجامع الأحمدي، ومن ثَمَّ حبب إليه الدراسة مرة أخرى بعد هروبه منها، كما حبب إليه التصوف النقي، البعيد عن البدع والخرافات.

٢ـــ الشيخ" حسن الطويل"، هذا الشيخ الذي وجهه إلى تعلم العلوم العصرية كالجغرافيا والفلك والرياضيات والطبيعة والكيمياء وغيرها، فقد كان هذا الشيخ له معرفة بالفلسفة والرياضيات فحببه إلى التوسع في

---

[١] ـــ عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده للعقاد ص٢١٧. والمراد بالسري: أي المختار، صاحب المروءة والشرف. والأحوذي: أي المشمر في الأمور، القاهر لها، لا يند عليه منها شيء، والسريع في كل ما أخذ فيه، والعالم بالأمر. لسان العرب:(سرو، حوذ).

[٢] ـــ المرجع السابق: ص٢١٨.

دراستهما، والتطلع إلى المزيد من تلك العلوم التي كان الأزهر يرفض تعلمها.

٣ـ السيد" جمال الدين الأفغاني"، هذا الرجل الذي كان محركاً للعديد من ثورات الطلاب ومظاهراتهم؛ حيث إنه وهب نفسه لتحقيق أسمى هدف، وهو إيقاظ الأمة الإسلامية من سُباتها، والنهوض بها من كبوتها، فعمل على تبصرة الشعوب بحقوقها، وقد وجد فيه الإمام ضالته المنشودة التي كان يبحث عنها؛ حيث وجد من يشجعه على تحقيق الدعوة إلى إصلاح حال الأمة، ومن ثَمَّ لازمه ونشأ بينهما توافق ووئام، وصداقة خالصة، ومحبة صافية.

أما تلاميذه الذين تأثروا بأفكاره فهم أكثر من أن يحصوا، ومنهم ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ:

١- الشيخ" محمد رشيد رضا".

٢- شاعر النيل" حافظ إبراهيم".

٣- شيخ الأزهر" الأحمدي الظواهري".

٤- شيخ الأزهر" محمد مصطفى المراغي".

٥- شيخ الأزهر" مصطفى عبد الرازق".

٦- الزعيم الوطني" سعد زغلول".

٧- قاسم أمين.

٨- طه حسين.

٩- محمد لطفي جمعة.

وغير هؤلاء كثير، يقول د. عثمان أمين في كتابه" رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده"،عن أثر الإمام في تلاميذه وأتباعه المباشرين وغير المباشرين:" إن المتأمل المنصف لابد أن يلاحظ أننا حين نستقصي الحركة الفكرية، منذ أيام قاسم أمين، وسعد زغلول، إلى المفكرين المعاصرين (أي حتى سنة ١٩٤٥م) أمثال: أحمد لطفي السيد، وفريد وجدي، ومصطفى عبد الرازق، وعباس العقاد، وطه حسين، وأحمد أمين، وعلي عبد الرازق، وحسين هيكل، وخالد محمد خالد، نجد أنهم جميعاً، على اختلاف نزعاتهم، وتباين اتجاهاتهم، لا يخلون من أن يكونوا متأثرين بآراء الأستاذ الإمام من قريب أومن بعيد"[١].

رابعاً: أهم أعماله والمناصب التي تولاها:

١- بعد تخرجه من الأزهر عُيّن فيه، فدرَّس لطلابه المنطق والفلسفة، وفي عام (١٢٩٥هـ ـ ١٨٧٨م) انتقل لتدريس التاريخ الإسلامي في دار العلوم، كما عُيِّن مدرساً للعلوم العربية في مدرستي الألسن والإدارة.

٢- في عام (١٢٩٦هـ ـ ١٨٧٩م) منع من التدريس، وحددت إقامته بقريته، وذلك بعد نفي صديقه" جمال الدين الأفغاني" من مصر؛ لأنهما قاما بتحريض الناس على المطالبة بحرياتهم.

٣- في عام(١٢٩٧هـ ـ ١٨٨٠م) أُسندت إليه رئاسة تحرير صحيفة" الوقائع المصرية"، التي عمل فيها كاتباً بوساطة من" رياض باشا"

---

[١] ـ رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده.ص١١ د.عثمان أمين،ط:مكتبة الأنجلو المصرية.ط: الثانية:١٩٦٥م.

ناظر النظار عند الخديوي" محمد توفيق".

٤- في عام(١٢٩٨هـ ـ ١٨٨١م) عُيّن عضواً في المجلس الأعلى للمعارف العمومية.

٥- في عام(١٣٠١هـ ـ ١٨٨٤م) اشترك مع "جمال الدين الأفغاني" في إصدار صحيفة (العروة الوثقى).

٦- في عام(١٣٠٢هـ ـ ١٨٨٥م) سافر إلى بيروت، وعمل مدرساً في المدرسة السلطانية، وأدخل إليها علوم التوحيد والمنطق والتاريخ الإسلامي، ثمَّ أسس في بيروت جمعية للتقارب بين الأديان الثلاثة.

٧- في عام(١٣٠٦هـ ـ ١٨٨٨م) عينه الخديوي" محمد توفيق" قاضياً بمحكمة بنها، بعدما أصدر عفواً عنه، فعاد من بيروت إلى مصر، ثم أصبح مستشاراً في محكمة الاستئناف.

٨- في عام(١٣١٧هـ ـ ١٨٩٩م) عُيِّن مفتياً للديار المصرية، وكان ـ رحمه الله ـ يعدُّ أول مفتٍ مستقل لمصر من قِبَل الخديوي" عباس حلمي"؛ لأن منصب الإفتاء قبل ذلك كان يضاف إلى من يشغل وظيفة مشيخة الجامع الأزهر، ثم أصبح بمنصب الإفتاء عضواً في مجلس الأوقاف الأعلى.

٩- في عام(١٣١٨هـ ـ ١٩٠٠م) عُيِّن عضواً في مجلس شورى القوانين، وعضواً في مجلس إدارة الأزهر، وشارك في تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية ثمَّ أصبح رئيسا لها، كما أسس جمعية إحياء العلوم العربية لتحقيق المخطوطات، ونشر كتب التراث الإسلامي.

خامساً: آثاره ومؤلفاته:

أثرى الإمام محمد عبده ـ رحمه الله ـ المكتبة العربية بكثير من المؤلفات، من أهمها:

١- تفسير للقرآن الكريم، والمعروف باسم تفسير المنار.

٢- ديوانه الشعري.

٣- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية.

٤- رسالة في الرد على هانوتو.

٥- رسالة التوحيد.

٦- الإسلام والرد على منتقديه.

٧- "رسالة الواردات" في الفلسفة والتصوف.

٨- حاشية على شرح الدواني للعقائد العضدية.

٩- تحقيق كتاب" دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني.

١٠- شرح نهج البلاغة" للإمام عليّ كرم الله وجهه.

١١- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني.

١٢- شرح البصائر النصيرية.

١٣- ترجم عن اللغة الفارسية رسالة" الرد على الدهريين" للسيد جمال الدين الأفغاني.

١٤- دروس من القرآن الكريم.

١٥- الإسلام دين العلم والمدنية.

١٦- فلسفة التربية الحقة.

وغير ذلك كثير[١].

سادساً: مضمون دعوته الإصلاحية:

كان ــ رحمه الله ــ من أبرز دعاة التجديد والإصلاح، وأحد أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، ورسالته في الحياة كانت ــ كما قال أحد الكتاب الذين كتبوا عنه ــ تتلخص في أمرين: "الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة"[٢].

لقد كان يرى أنَّ الإصلاح الحقيقي للأمة من وجهة نظره، ينبغي أن يكون بالتدريج ليستقر، وليس طفرة فيزول، ويكون ذلك من خلال نشر التعليم الصحيح بين أفراد الشعب، وإعمال الفكر الصحيح، ومحاربة الجهل والتخلف، والظلم والفساد، والتدرج في الحكم النيابي؛ لأنه ليس من المصلحة أن تفاجأ البلاد بأمر قبل أن تستعد له، فيكون ذلك من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سنّ الرشد، فيفسد المال، ويفضي إلى الهلاك، إنَّ إيقاظ حمية الرأي العام للمطالبة برفع المظالم، وإصلاح أداة الحكم، وإنهاض الأمة على أساس قويم من التربية الاجتماعية ونشر التعليم، هو السبيل القويم للإصلاح لديه، وكان يتفق معه في هذا الرأي الزعيم الوطني" سعد زغلول".

---

[١] ــ راجع في ذلك: الأعلام ٢٥٢/٦، ومعجم المؤلفين ٢٧٢/١٠، والمستدرك ص٦٩٥، ومحمد عبده أديباً وناقداً ص١١١د/ السيد تقي الدين السيد، والذي أحصى له ستة وعشرين مؤلفاً.

[٢] ــ الأعلام: ٢٥٢/٦.

وفي المقابل كان هناك في البلاد تيار آخر يرى أنَّ الإصلاح لا يأتي بالتدريج، وإنما بالتطبيق الفوري لكل ما هو موجود في دول أوربا من الحرية الشخصية والنظم السياسية، وتزعم هذا التيار جماعة من المثقفين الذين تعلموا في أوربا، وتأثروا بجو الحرية فيها، وأعجبوا بنظمها، ومن هؤلاء" أديب إسحاق"، وكان هذا الفريق ينظر إلى الإمام محمد عبده ومن تبعه على أنهم رجعيون.

لقد ساهم ــ رحمه الله ــ بعلمه ووعيه واجتهاده في تحرير العقل العربي من الجمود الذي أصابه لعدة قرون، كما شارك في إيقاظ وعي الأمة نحو التحرر والاستقلال، وبعث الوطنية، وإحياء الاجتهاد الفقهي لمواكبة التطورات السريعة في العلم، ومسايرة حركة المجتمع وتطوره في مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية، إنه يعدُّ بحق ــ كما قال:د.عثمان أمين[1] ــ رسولاً من رسل الوعي الإنساني، الذي أنعم الله عز وجل به ليس على مصر فقط، بل على أقطار الشرق العربي والإنساني كله.

سابعاً: موقفه من الثورة العرابية.

هذه النقطة تعد من الأهمية بمكان؛ حيث إنَّ محور جلِّ شعره يدور حول أسباب الثورة العرابية والأحداث التي صاحبتها، وموقفه من قائدها" أحمد عرابي، أقول: إنَّ الإمام ــ رحمه الله ــ كان يقف بجانب الثورة العرابية ويؤيدها، وذلك بتوحيد الصفوف في وجه الاحتلال الأجنبي،

---

[1] ــ رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده ص١٠.

وتنبيه الأمة بحقوقها ورفع المظالم عنها، ثم إعدادها تدريجياً لتحمل الحكم النيابي المستقل، ويكون ذلك بالتأني والروية، واستعمال الحكمة والعقل، ولا يكون ذلك بالتسرع والاندفاع الذي يفتح الباب أمام التدخل الأجنبي للبلاد، كما يرى ذلك زعماء الثورة، يحدثنا العقاد عن ذلك قائلاً: كان الإمام" يؤيد الثورة في أمرين،"أولهما: تنبيه الرأي العام وجمع كلمته للمطالبة برفع المظالم، وإصلاح نظام الحكم، وإسناد المناصب الكبرى ووظائف الحكومة عامة إلي الوطنيين. وثانيهما: ــ وهو أحوج إلي الوقت والأناة ــ هو التعويل علي إنهاض الأمة، وإقامة نهضتها علي أسس التربية والتعليم، وإعدادها للحكم النيابي المستقل، برغبتها الصادقة، وقدرتها علي صيانته من عبث الولاة والمتسلطين،... إلا أنه كان يخالف زعماء الثورة في اتباع الخطة التي تؤدي إلي الشطط، وتفتح الباب للتدخل العسكري من جانب الدول الأجنبية، إنه إذاً كان ثائراً ولكنه لم يكن عُرابياً؛ لأنه كان على خلاف مع زعيمها "أحمد عرابي" في برنامجه العملي"[١].

ثم يستطرد العقاد في الحديث عن ذلك فيقول:" ولما استفحلت الحركة العرابية، وضرب الأسطول الإنجليزي الإسكندرية، انضم الشيخ محمد عبده إلي العرابيين، ووضع يده في أيديهم؛ لأن الواقعة قد وقعت، وكان ما خاف أن يكون، فلم يسعه إلا أن يكون مع قومه ــ ولو كانوا

---

[١] ــ محمد عبده ص١١٤ عباس محمود العقاد.ط:المكتبة العصرية ــ بيروت.وعبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده للعقاد أيضاً ص١١٥،ط: دار الكتاب العربي ــ بيروت .ط:١٩٧١م.

مخطئين ــ علي الغريب، وكان يتمثل ببيتي الحماسة:

بذلتُ لهم نُصْحِي بُمنعَرَج اللوَي فلم يَستبينُوا الرُشدَ إلا ضحي الغَدِ

وهل أنا إلا من «غَزِيَّة» إنْ غَوتْ غويتُ وإن تَرشُدْ «غَزِيَّةُ» أرشُد ؟ !١

ومما يؤكد تأييده ووقوفه بجانب الثورة، الثمن الذي دفعه من أجل ذلك ــ عن طيب خاطر منه ــ وهو حبسه ثلاثة أشهر مع رجال الثورة، ثمّ صدور الحكم بنفيه عن مصر إلى بيروت لمدة ثلاث سنوات، لكنها امتدت إلى قرابة الست سنوات، (١٣٠٠هـ / ١٣٠٦هـ ــ ١٨٨٢م /١٨٨٨م) ثم عاد بعدها إلى مصر بعد عفو الخديوي" توفيق" عنه.

أما عن علاقة الإمام برئيس النظار" رياض باشا"، فكانت العلاقة بينهما وطيدة، لكن كان يحكمها المبادئ الأخلاقية والوطنية، والعقاد يجلّي لنا هذه العلاقة فيقول:كان" الإمام يؤيد وزارة "رياض باشا"، في برنامج الإصلاح، ولا سيما رفع السخرة، وتحريم الجلد أي: الضرب بالكرباج، والتشديد في محاسبة المديرين علي سوء المعاملة، ويؤيده أكبر التأييد في

---

١ ــ المرجع السابق: ص١١٧، ١١٩، والبيتان في ديوان الحماسة١/٣٣٧ منسوبان لدريد بن الصمة، برواية:" أمرتُهُمُ أمري بمنعرج اللوى ..."، وفي شرح ديوان الحماسة للمرزوقي١/٢٥٢.و"غزية":رهطه، والمعنى: أنه اجتهد في نصحهم وردهم إلى ما هو أنفع لهم، فلما عصوه في ذلك أمسك عنهم جارياً في الطريق الذي يسلكونه وإن علم الخطأ فيه، كأنه قال: ما أنا إلا من غزية في حالتي الغيّ والرشاد، فإن عدلوا عن الصواب عدلت معهم، وإن اقتحموه اقتحمت بهم. أي:ما أنا إلا شريكٌ لهم فيما أثمر لهم جهلهم وغوايتهم، كما كنت شريكاً لهم لو رشدوا فيما كان يثمر لهم رشادهم .

توسيع نطاق التعليم، وتشجيع العاملين علي نشر الثقافة من علماء هـذا البلد، أو العلماء الوافدين إليه من الأقطار الشرقية، لكنه كان يأخذ عليه أن شهوة الحكم غلبته علي مشيئته، فلم يعتزل الـوزارة حـين وجـب اعتزالها"[١].

ثامناً: وفاته

بعد حياة مليئة بالكفاح والنضال في سبيل الإصلاح وتحقيـق الحـق والخير للأمة الإسلامية كلها، أسلم روحه لبارئها، وكان ذلك في يـوم ٨ من شهر جمادى الأولى سنة١٣٢٣هـ ـ الموافـق ١١ مـن شـهر يوليو١٩٠٥م، في مدينة الإسكندرية، ثم دُفن في مدينة القاهرة، عن عمر ناهز ستة وخمسين عاماً. وقد رثاه كثير من الشعراء، منهم: محمـد إمـام العبد[٢]، وحافظ إبراهيم، وغيرهما. ولنستمع إلى بعض ما قاله شاعر النيل عن هذه الشخصية الوطنية الفذة، المخلصة الوفية النادرة؛ حيـث يبـدأ مرثيته بقوله:

سـلامٌ على الإسـلامِ بعد مُحمدٍ سـلامٌ على أيامه النضـرات

* ثم يشير إلى مدى صبر الإمام على ما ابتلي به من أذى الحاسـدين الحاقدين، بقوله:

وآذوك فـي ذاتِ الإله وأنكـروا مكانَك حتّى سوَّدوا الصفحاتِ

---

[١] ـ المرجع السابق: ص١١٥، ١١٦.

[٢] ـ هو شاعر مصري، له أخبار كثيرة مع حافظ وشوقي ومطران ومعاصريهم. توفي سـنة١٩٢٠م، وقد رثاه بقصيدة مطلعها: فداك أبي لو يفتدي الحر بالعبـد! راجـع تـراجم شـعراء الموسـوعة الشعرية١/٢٠١١.

رأيتَ الأذى في جانبِ اللهِ لـذةً ورُحتَ ولم تَهْمُمْ له بشكاةِ
لقد كنتَ فيهم كوكباً في غياهبٍ ومعرفةً في أنفسٍ نكراتِ
أبنْتَ لنا التنزيلَ حُكماً وحكمةً وفرَّقتَ بين النورِ والظلماتِ

* ثم يبرز مقدرته في الردِ على المستشرقين وإفحامهم، بقوله:

وَوَفَّقتَ بين الدينِ والعلمِ والحجا فأطلعتَ نوراً من ثلاثِ جهاتِ
وقفتَ "لهانُوتو" و"رينانَ" وقفةً أمدَّكَ فيها الروحُ بالنفحاتِ
وخِفتَ مقامَ اللهِ في كلِ موقفٍ فخافَكَ أهلُ الشَكِ والنزغاتِ

* ثم يصور مدى الحزن العميق الذي عمَّ أرجاء المعمورة كلها على فقده، بقوله:

بكى الشرقُ فارتجتْ له الأرضُ رجةً وضاقتْ عيونُ الكونِ بالعبراتِ
ففي "الهندِ" محزونٌ،وفي "الصينِ" جازعٌ وفي "مصرَ" باكٍ دائمُ الحسراتِ
وفي "الشامِ" مفجوعٌ، وفي "الفرسِ" نادبٌ وفي "تُونسٍ" ما شِئْتَ من زفراتِ
بكى عَالَمُ الإسلامِ عَالِمَ عصرِهِ سراجَ الدياجِي هادمَ الشُبُهاتِ[1]

رحم الله الشيخ رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وجمعنا وإياه في مستقر رحمته، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وهو نعم المولى، ونعم النصير.

---

[1] ـ ديوان: محمد حافظ إبراهيم ٢/١٤٤ ـ ١٤٧، ط: دار الكتب المصرية. ط: الثانية: ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م.

النقطة الثانية: وصف ديوان الإمام

لقد قام الأستاذ/ ماجد صلاح الدين حسن بجمع شعر الإمام وتحقيقه في ديوان مستقل، واعتمد في ذلك على ما كتبه عنه تلميذه" محمد رشيد رضا"، في كتابه الشهير:"تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ: محمد عبده" الذي جعله في ثلاثة أجزاء، كما ورد بعضها في كتاب:" مذكرات الإمام محمد عبده"، الذي قام بعرضه وتحقيقه الأستاذ/ طاهر الطناحي.

والديوان عبارة عن أشعار، وبعض الحكم التي قالها الإمام.

أما الأشعار فهي عبارة عن قصيدتين، وبعض الأبيات المنثورة، أما الأولى: فهي التي نظمها الإمام وهو في السجن في شأن الثورة العرابية، وأبياتها تزيد على مائة بيت[١]. وأما الأخرى: فهي التي قالها الإمام وهو على فراش الموت، وهي عبارة عن سبعة أبيات.

وأما الأبيات المنثورة:

ـ فمنها بيتان قالهما وهو يودع حلقات الدراسة في الأزهر، وبدأهما بقوله:

لو كان هذا وصفهم ما شنعوا بل وقتهم في" جاء زيد" ضيعوا[٢]

ـ ومنها بيتان نظمهما في حب "مصر"، قائلاً:

---

[١] ـ يقول الشيخ رشيد رضا عن تلك القصيدة:" إن الإمام لم ينظم الشعر قبلها ولا بعدها، إلا تلك الأبيات التي قالها في مرض موته، وقد قال لي: إذ أنشدني إياها، إنني قلت شعراً في هذه الأيام، كأنني لا أقول الشعر إلا في المرض أو السجن"، يشير إلى هذه القصيدة. راجع: تاريخ الأستاذ الإمام ١/١٥٠، ومحمد عبده أديباً وناقداً ص٢٥٤.

[٢] ـ الديوان: ص٣٣، ومحمد عبده للعقاد ص٧٩.

أحبك حباً لو تحبين مثلـــه أصابك منه يا ديار تغيـــرُ
شديداً مع الأشواق أما نهاره فسعي، وأما ليله فتفكـــرُ

وقد قالهما معارضاً بهما من قال في حب الحسان:

أحبك حباً لو تحبين مثلـــه أصابك من وجد على جنون
لطيفاً مع الأحشاء، أما نهاره فدمع، وأما ليلـــه فأنينُ[1]

ـــ ومنها بيت افتتح به خطابه الذي أرسله إلى أحد أصدقائه وهو في السجن، قال فيه:

تقلدتني الليالي وهي مدبـرةٌ كأنني صارمٌ في كف منهـزمِ[2]

ـــ ومنها بيت نظمه الإمام في مطلع قصيدة هَنَّأَ فيها أحـــد علمـــاء الشيعة، قال فيه:

صحت بصحتك الدنيا من العللِ يا ابن الوصي أمير المؤمنين عليّ[3]

وأختم هذه النقطة ببعض الحِكَم الغالية، والدرر النفيسة الـــتي قالهـــا الإمام، وأنتقي منها ما يتفق مع أفكاره وجهوده الإصلاحية، ودعوتـــه إلى التجديد، يقول:

ـــ إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه.

---

[1] ـــ الديوان: ص٣٣، وتاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده١٩٦/٢ للسيد محمد رشيد رضـــا، المقالة الثانية والثلاثون.ط: المنار ـــ مصر، ط: ١٣٤٤هـــ.

[2] ـــ الديوان: ص٣٤، وتاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده٢٦٧/١.

[3] ـــ الديوان: ص٣٥.

ـــ الرجوع عن الحق بعد العلم به محال.

ـــ من عرف الحق؛ عزَّ عليه أن يراه مهضوماً.

ـــ من شؤم بلادي أن لا أجد فيها من أستفيد منه، وتمنيت لو كـــان كل الناس أعلم مني.

ـــ سنة الله في خلقه أنَّ أتباع الحق يكونون فقراء في أوَّل الأمـــر، ثم سلاطين وأمراء في آخره؛ لأنَّ الحق حليم، والباطل سفيه، والحق لا يظهر إلا إذا بلغ الباطل آخر حدّه ، فحينئذ ينهض الحقُّ لمصارعته.

ـــ لا صلاح مع الجهل.

ـــ إنَّ الذي يعرف الحق؛ يعزُّ عليه أنْ يرى الحق مهاناً.

ـــ الباطل لا يصير حقاً بمرور الزمن.

ـــ أقوى شرط في النجاح قوة العزيمة فيه، ويُصرُّ الإنسان على الفوز بغرضه، فإذا تضعضعت العزيمة ضاع نجاحه، وهذا شأن المسلمين الآن.

ـــ من أكبر التقوى علوّ الهمة، ومن أكبرها السعي في مصلحة الأمة، ونفع الناس.

ـــ أساس سعادة المسلم، ثقته بالله، وعمله لرضاه.

ـــ لا وحشة في النفس كوحشة الجهل، وكلما علم الإنسان شـــيئاً؛ أنس به وسُرَّ.

ـــ الشعر إذا لم تكن ألفاظه آخذة بجزء مـــن روح الشـــاعر فلـــيس بشعر[1].

---

[1] ـــ الديوان: ص٣٨ وما بعدها.

المبحث الأول

الصور البيانية التي جاءت في سياق حديثه عن تصوير آلامه وهمومه وهو في السجن.

قبل تناول هذا الموضوع بالعرض والتحليل تجدر الإشارة إلى التعرّف على نظرة الإمام محمد عبده ــ رحمه الله ــ إلى الشعر، أقول: كان لديه ــ رحمه الله ــ مقدرة فائقة على نظم الشعر، فكان إذا أراد شعراً صنعه، بيد أنه لم يشغل به نفسه؛ لانصرافه إلى النثر، ولقد نظر الإمام إلى الشعر نظرة ملؤها الفهم والتذوق والفن.

فالشعر عنده أحد الفنون الجميلة كالرسوم والتماثيل، ينقل إليك أحوال الناس في شئونهم المختلفة، وأحوال الجماعات في المواقع المختلفة، يصوّر الإنسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا، والطمأنينة والتسليم، وفي حالة الجزع والفزع، والخوف والخشية.

إن الإمام يؤمن بوحدة الفنون الجميلة من حيث الغاية والهدف، وإن اختلفت طريقة الأداء في كل فنٍّ، فالرسم ــ مثلاً ــ ضَرْبٌ من الشعر الذي يُرى ولا يُسمع، والشعر ضرب من الرسم الذي يُسمع ولا يُرى، والفنون الجميلة ــ في نظر الإمام ــ يكمل بعضها بعضاً، وتتعاون جميعاً على إبراز الحقائق الفنية، ومن ثَمَّ كانت دعوته إلى ضرورة العناية بالمتاحف ودور الآثار؛ لأنّ حفظ هذه الآثار حفظٌ للعلم في الحقيقة، وشكرٌ لصاحب الصنعة على الإبداع فيها، ثم يكشف عن تلك العلاقة التي تربط بين دور كلٍ من الرسم والشعر بهذا المثال، فيقول: إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت، فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نَفْسُك، كما يتلذذ بالنظر فيها حِسُّكَ، إذا نزعت نفسك إلى تحقيق الاستعارة المصرّحة في قولك:" رأيت أسداً" تريد : رجلاً شجاعاً، فانظر إلى صورة أبي الهول بجانب الهرم الكبير، تجد الأسد رجلاً، أو الرجل

أسداً، فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم[١].

هذا، وإنَّ الإمام ــ رحمه الله ــ قد اتخذ الصورة البيانية كوسيلة من الوسائل التي اعتمد عليها في بنيته الشعرية، فلم تغب الصورة عن باله وهو يقرض الشعر، وإنما شكلت عاملاً أساسياً لديه في بنائه الشعري، وقام بتوظيفها في تجسيد مشاعره وأحاسيسه أعظم توظيف. وقد تنوعت الصورة لديه ما بين: تشبيهات، واستعارات، وكنايات، كما أنها أتت في سياقات مختلفة، ومقامات متعددة.

* ففي مقام حديثه عن تصوير آلامه وأحزانه، وهمومه ومآسيه، وهو في داخل السجن، نراه يقول:

أبِيتُ ليلِي كَمَلسوعٍ تُساورهُ ... زُرْقُ الأفاعي وقد شُدَّت أياديه

الجسمُ في ألمٍ، والروح في قَلَقٍ ... والقلبُ في فزَعٍ من خوفِ آتيه[٢]

إن هذه الصورة التشبيهية يكشف لنا الإمام من خلالها آلامه ومعاناته وهو في سجنه، إنها تصور مدى إحساسه بالألم والتوتر، والقلق والاضطراب الذي أصابه وهو في محبسه ، إنه إنسان مكبل الأيدي، تثبُ عليه الأفاعي من كل جانب فتلدغه وهو مكتوف الأيدي، فيتألم أشد الألم،

---

[١] ــ راجع: محمد عبده أديباً وناقداً ص٢٥٣، وتاريخ الأستاذ الإمام٢/٤٩٩.

٢ ــ ديوان: الإمام محمد عبده ص١٢ تحقيق/ ماجد صلاح الدين حسن.ط: دار الفكر الإسلامي ــ القاهرة.ط: الأولى:١٩٩٩م. واللسع معناه: اللدغ،أو هو: لِما ضرَب بمُؤَخَّرِه، واللَّدْغُ: لِما كان بالفم، ولَسَعَتْه الهامّةُ: تَلْسَعُه، لَسْعاً، ولَسَّعَتْه، ويقال: لَسَعَتْه الحيةُ والعقربُ. ورجُل لَسِيعٌ: مَلْسُوعٌ.تساوره:أي: تثب عليه.يقال: سارَ يَسُورُ سَوْراً وسُؤُوراً: وَثَبَ وثارَ،وساوَرَهُ مُساوَرَةً وسِوَاراً: واثبه. والسَّوْرَةُ: الوَثْبَةُ. وقد سُرْتُ إليه: أي وثَبْتُ إليه. لسان العرب (لسع ــ سور).

ولا يستطيع الدفاع عن نفسه.

لقد استخدم في رسم تلك الصورة بعض العناصر التي ساعدت على إبرازها على هذا النحو المؤثر، فنرى اختياره للفظة "أبيت" بصيغة المضارع للدلالة على أن الحالة التي يصورها تتجدد له كلما حلّ عليه المبيت، ثم أراد أن يؤكدّ ما يحدث له من ألم وخوف وهو في سجنه عموماً، وفي ليله خصوصاً فأتى بكلمة "الليل" وما توحي به من اجتماع الهواجس والهموم، والوحدة، والوحشة، ولو قال:" أبيت كملسوع" لدّل على المراد؛ لأن الفعل "بات" يدّل على أنّ المبيت لا يكون إلا بالليل.

ثم نجد اختياره لأداة التشبيه " الكاف" دون "كأنّ"؛ حيث إنّ المكروب ليس أمامه متسع من الوقت ليقول" كأنّ" ومن ثمَّ كانت الكاف هي الألصق والأنسب في هذا الظرف، ومما يدّل في صياغته على ضيقه وشدة كربه أنه اكتفى بذكر الصفة عن الموصوف فقال: كملسوع" ولم يقل:" كإنسان ملسوع"، وبالإضافة إلى ما يعانيه من شدة لسعه، فأياديه مكبلة مشدودة لا يستطيع فكاكها،ثم زاد في الصورة أمراً آخر، وهو أن هناك أفاعي زرقاً تحيط به من كل جانب، وهي ليست حيّة بل أفعى ــ وهي حية من شرار الحيات، دقيقة العنق، عريضة الرأس، قاتلة السم ــ كما أنها ليست أفعى واحدة، إنما هي أفاعٍ ــ بصيغة الجمع ــ كثيرة، وليست أية أفاعٍ إنما هي "زرق" ،فلسعها أشدّ،ووخزها أعظم، وسمها أكثر،ثم إن هذه الأفاعي "تساوره" أي: تثب عليه في كل وقت فتصيبه ولا تخطؤه.

ثم أكدّ تلك الصورة المجملة فأعقبها بالتفصيل في البيت الثاني؛ لبيان ما

أصاب نفسه من هواجس وأوهام وجسده من شدائد وآلام، وجمع في هذا التفصيل بين ألم الجسد، وقلق الروح، وفزع القلب وخوفه، وهذه الأمور كلها تصور ما كان يعانيه في محبسه.

إن هذه الصورة التشبيهية جسدت منتهى ألمه وقلقه واضطرابه وخوفه،وهذا هو إحساس الإنسان المسجون دائماً.

ثم زاد في تفصيل حالته، فقال:إنّ مما زاد في ألمي، أنّني سُجنت من غير سبب، فليس لي ذنب ارتكبته سوى الدفاع عن كرامة قومي وعزهم، ثم يتساءل: وهل هذا ذنب يعاقب عليه الإنسان بالسجن؟إنه ينفي أن يكون له ذنب فيما حدث له، وأنه يتبرأ من أن يكون قد فعل شيئاً يستحق عليه العقوبة، سوى أنه ينادي برفع مجد بلاده، وطلب الحرية لأهله؛ ولذا استخدم"ما" للدلالة على الاستنكار، وفي ذلك يقول:

وما ذنوبي لدى دهري سوى شَمَمٍ يأبى الدنايا، وأفكارٍ تُضاهيه

مجدي بمجد بلادي كنت أطلبه وشيمة الحرّ تأبى خفْضَ أهليه[1]

ونرى أن هذه الصورة التي ذكرها الإمام في تصوير آلامه قد استقاها من التراث العربي الخالد؛ إذ إنها ليست مبتكرة، ولا جديدة على شعرنا العربي، وإنما هي صورة قديمة طرقها كثير من الشعراء عند تصوير إحساسهم بالقلق والاضطراب، ، ومن هؤلاء الشعراء: النابغة الذبياني، الذي صوّر خوفه وقلقه من توعد النعمان له في قوله:

---

١ ــ الديوان:ص١٢.والشَّمَم: الرفعة والعلو. يقال: شمَّ البناء أو الجبل شَمَماً: ارتفع أعلاه، ورجلٌ أشَمّ:أي: سيّدا ذا أنفة.

وعيدُ أبي قابوسَ، في غير كُنهِه أتاني،ودُوني راكسٌ، فالضواجعُ
فَبِتُّ كأنِّي ساورَتني ضَئيلَةٌ مِنَ الرُّقشِ، في أنيابِها السُّمُّ ناقِعُ
يُسَهَّدُ من ليلِ التَّمامِ سَليمُها لحلْيِ النساءِ في يديْه قعَاقِعُ
تَناذرَها الرَّاقون من سُوءِ سُمِّها تُطلقُهُ طَوراً، وطوراً تُرَاجِعُ[1]

*وفي موطن آخر نراه يرسم لنا صورة أخرى لحالته وهو في سجنه، فيقول:

تَقَلَّدتني الليالي وهي مُدبِرَةٌ كأنَّني صَارِمٌ في كفِّ مُنهزِمٌ[2]

ففي هذا البيت ــ الذي نظمه الإمام مفتتحاً به خطابه الذي كتبه في التاسع من شهر المحرم سنة ألف وثلاثمائة من الهجرة، والذي أرسله من السجن إلى أحد أصدقائه أو مريديه، يكشف فيه عن حالته التي وصل إليها، وتأثير ما بلغه من وشايات من كان يظن في نفسه أنهم أصدقاؤه ــ ، تشبيه تمثيلي، حيث شبَّه حالته وهو في السجن في كونه مقيد الحركة، وليس له أدنى تأثير بحالة السيف الباتر القاطع الذي يكون في يد المهزوم

---

[1] ــ ديوان: النابغة الذبياني ص٧٦ تحقيق/ حَمدُو طمَّاس. ط: دار المعرفة ــ بيروت. ط: الثانية:١٤٢٦هـ ــ ٢٠٠٥م.ومعنى راكس:اسم واد،والضواجع:منحنى الوادي،ساورتني: واثبتني، ضئيلة:أفعى دقيقة قد أتت عليها السنون فقلّ لحمها واشتدّ سمها،والرقش جمع رقشاء:وهي أفعى فيها نقاط بيضاء وسوداء،ناقع: قاتل،يسهد: يمنع من النوم،السليم: الملدوغ،قعاقع: أصوات.تناذرها الراقون: أي: أنذر بعضهم بعضاً من هذه الأفعى؛ لأنها ــ لنكادتها وشدتها ــ لا تجيب راقياً، ومن ثمّ فهي تخفّف عليه مرة، وتشدّد عليه أخرى.

٢ ــ الديوان: ص٣٤.ومعنى: تقلدتني: أي لازمتني وصاحبتني، يقال: قَلّدَ فلانا الأمر أو العمل: فوضه إليه، وألزمه إياه.الصارم: السيف القاطع.

في كونه عاطلا عديم الجدوى،أي أنه عندما حبس انقطعت منفعته فأصبح عديم الجدوى، وليس له أية فائدة ولا تأثير.

* ثم نراه يصور موقف بعض أصحابه منه، وتنكرهم له بعد دخوله السجن، وأنَّ ذلك مما ضاعف من أحزانه وآلامه، فيقول:

تنكرتني وجوهٌ كنتُ أعرفها ... تَعُدُّ لثمَ نعالي غاية النيه

تيقَّنَ العزمُ أني لو برزتُ له ... أخرجتُ من ضغنه أُخرى مخازيه

حُجبتُ عنهم وعَضبي غير محتجبٍ ... صِلٌ يُصلصِلُ والأقدار تُمليه[1]

إنَّ الإمام في هذه الأبيات لا يفوته أن يصور تنكر بعض أصحابه لـه وهو في هذه المحنة العصيبة، وفيها يكشف لنا عن طبيعة فئة من البشـر، وهم أصحاب المصالح الذين يلهثون وراء تحقيق مآربهم، فإذا ما تحققـت نسوا كل شيء، بل لا يكتفي بالقطيعة مَن هذا حاله ، وإنما يسلك طريق الوشاية والوقيعة لدى الآخرين؛ لأن صدره مملوء بالضغائن والأحقاد، ثم يقول إنه إذا كان قد غُيِّب عن هؤلاء الحاقدين بدخولـه السـجن ـــ لا

---

١ ـــ الديوان: ص٢٣. ومعنى الإنكارُ: الجحود. واللُّثمُ: التقبيل، واللَّثم: القُبْلة. النَّعْلُ: الحِذاء. الغاية: النهاية والآخر، وغاية كل شيء: نهايته وآخره. النِّيةُ: الكِبْرُ والفخر.تيقن: تأكد. العَزْمُ: مـا عَقَد عليه قَلْبُك من أَمْرٍ أَنَّكَ فاعِلُه، والعَزْمُ: الجِدُّ، يقال عَزَمَ على الأمر: أَراد فِعْلَه. الضِّـغْنُ: مـا انطوى عليه الصدر من الحقد. مخازيه: فضائحه ومساوئه. حجبت: أي سُترت عنهم بالنفي والسجن، والحِجَابُ: الستر. العَضْبُ: القطع، والعَضْبُ: السيفُ القاطع، ولسانٌ عَضْبٌ: ذَلِيقٌ، ويقال:عَضُبَ لسانُه عُضُوبة، صار عَضْباً: أي حَديداً في الكلام. صَلَّ الشيء يَصِلُّ صَليلاً : صَوَّت صوتاً ذا رنـين كصوت الجرس، وصَلَّ المِسْمارُ صَلْصَلَ: صَوَّت عند الدَّق، وصَلْصَلَ الشيء: صَـوَّت صـوتاً فيـه ترجيع، تمليه: أي تملأه.

لشيء ارتكبه، أو لجريمة اقترفها سوى الدفاع عن الحق، والوقوف بجانب المظلوم ــ فإنّ أقواله التي صدع بها في وجه الظلم تملأ الآفاق، ويسمع بها القاصي والنادي؛ لأن الذي تولّى ذلك هو القدر.

وقد برز في هذه الأبيات عدة صور متنوعة، منها المجاز المرسل الــذي علاقته الجزئية، وذلك في قوله:" تنكرتني وجوه"، ومنها الكناية في قوله: تَعُــدُّ لَــثْمَ نعــالي غايةَ التيه"، وكنّى بذلك للدلالة على ما كانوا عليه بالأمس القريب من شدة تطلعهم للتقرب منه، والتودد له ، ثم اليوم وبعد سجنه أصبحوا يتنكرون له وكأنهم لا يعرفونه، ومن ثَمَّ قال:"تنكــرتني" للإشارة إلى ما وصل إليه جحود أصحاب هذه الوجوه له، وابتعادهم عنه، وعدم السؤال عليه، وهم الذين كانوا شديدي المعرفة به، فصاروا في غاية التنكر له.

ونرى أن" تقبيل النعال" وإن كان كناية عن مدى حرص هؤلاء على التقرب منه، وتمسكهم به، فأصبحوا كأنهم لا يعرفونه، إلا أنّ هذا التعبير يُعَدُّ غير مقبول من عَالِم مثله؛ لأنّ من سمة العــالِم التواضــع، والصــفح والعفو، وعدم مقابلة الإساءة بمثلها، فكان يمكنه أن يعبر تعبيراً آخر بديلاً عنه، وما كان أن يصدر منه هذا التعبير خاصة وهو يدعو إلى الإصــلاح، إنَّ هذا التعبير ينم عن الحالة النفسية التي وصل إليهــا الإمــام وهــو في محبسه، وأنه قد وصل إلى مرحلة الهياج النفسي والعصبي، تلك التي تجعل الإنسان تتفلت منه بعض الكلمات والتعبيرات غير اللائقة من وجهة نظر الآخرين، كما أنّ تقبيل النعال يحمــل أيضــاً في طياتــه معــنى الذلــة والانكسار، وكأنّ الإمام بالنسبة لهؤلاء كان شيئاً عزيزاً صعب المنال؛ لأنّ

مكانته عالية، ومنزلته سامية، خاصة وأنّه كان من جلساء أصحاب الجاه والسلطان.

وإن كنا نلتمس له العذر في صدور هذا التعبير منه؛ لأنه وكما يبدو من عِظم قدره، وقربه من أرباب السلطة، فمما لا ريب فيه أن يكونوا قد انتفعوا من وراء ذلك كثيراً، وقضى لهم مصالح ربما عجزوا عن تحقيقها بأنفسهم، فكان من المنتظر منهم أن يحفظوا هذا الجميل، وأن يكونوا أوفياء له، فلما لم يحدث شيء من ذلك، بل كان العكس وهو تجاهله والتنكر له، فقد جاء هذا التعبير نتيجة طبيعية لذلك.

ومن الصور التي جاءت في هذه الأبيات أيضاً، الاستعارة المكنية في قوله:" تيقن العزم"، حيث شبه العزم بإنسان متيقن مما يقول أو يفعل، تيقناً ليس فيه مجال لأدنى شك، وقال" تيقن العزم" ولم يقل" تيقنت"؛ للإشارة إلى مدى تأكده مما يقوله عن هؤلاء؛ لأن العزم إذا كان قد أصبح متيقناً من هذا التنكر، فما بالك بصاحبه؟. كما أشار إلى أن هذا التنكر منهم ليس له سبب سوى الحقد والحسد، والكراهية والبغضاء، وصدورهم مليئة بكثير من تلك الضغائن والأحقاد.

ومنها الكناية في قوله:" حجبت عنهم وعضبي غير محتجب"، كنّى بذلك عن نفيه وحبسه إلا أنّ نطقه بالحق لم ينقطع، بل وصل إلى مسامع من لهم أذان يسمعون بها.

وقوله:" صل يصلصل والأقدار تمليه"، كناية عن جهارة صوته، وأن صدعه بالحق له دويٌّ وقوة كبيرة؛ لأن الصوت لا يكون له رنين إلا إذا كان قوياً، كما أن الأقدار تعطيه قوة وبقاءً، وتمده بالسعة والانتشار.

* وفي مقام الحديث عن نفسه، وبيان مدى تفوقه على أقرانه، نراه يصور أهل زمانه بكشف مجدهم الزائف من خلال تشخيصه للزمان، فيقول:

بَنَى الزمانُ لهم بيتاً وشيّدَه ... وليس يَبقَى على ما لستُ أُبقيه

نِعَمٌ له معنا فيهم مداركة ... فيهم أجرُهُم من صنعِ أيديه

هذا الزمانُ زحمناه فذلّ لنا ... لكنْ به صرفُ عيبٍ كنتُ أدريه

وأحفظُ الدهرَ أني لا أشاكلُه ... فيما تبطّن من غشٍ وتمويه

أحاربُ الدهرَ وحدي ليس ينفعُني ... إلا الثباتُ وحسبي مَن أُصافيه

تعلّمَ الدهرُ منّي كيف يطعنُني ... فخابَ ظنّاً وخانتْه مزاكيه

وليس يُعجزُني عن كَسْرِ فَيْلَقِه ... إلا المنايا تُفاجيني فتَحميه

إنَّ المنايا سِهامُ اللهِ سدَّدها ... وليس يُخطِئُ سهمُ اللهِ مرميه[1]

في هذه الأبيات يحدثنا الإمام عن نفسه، وموقف أهل زمانه منه،

---

١ ــ الديوان: ص٢٤. ومعنى زحمناه: الزِّحام هو: تدافع الناس وغيرهم في مكان ضيق، يقال: زَحَمَهُ يزحَمه زَحْمَةً: دفعه في مضيق. الذُّلُّ: الخضوع، وهو: ضد العز، ويقال: تَذَلَّلَ له: أي خضع.أشاكله: أي أشابهه وأماثل، والشَّكْلُ: المثل، ويقال هذا أشكل بكذا: أي أشبه.التَّمْوِيهُ هو: التلبيس، يقال مَوَّه الحديث: زخرفه ومزجه من الحق والباطل، والمموه:الملبس الحق بالباطل. الصَّفَاءُ: ضد الكدر، وصَفْوَةُ الشيء: خالصه، وأصْفاهُ الود: أخلصه له، وصَافاهُ و تَصَافَيا: تخالصا، واصْطَفَاه: اختاره.مزاكيه: أي أسلحته. يقال أخذ فلان زِكْتَهُ: أي سلاحه وقد تزَكَّكَ تَزَكُّكاً إذا أُخذ عُدَّتَهُ، وفلان مِزَكّ، وزَاكّ، ومِشَكّ، وهو في زِكّتِه وشكّته: أي في سلاحه. اللسان(زكك)، الفَيْلَق: الكَتيبة العظيمة من الجيش، الكثيرة السلاح، وقيل الفَيْلَق هي: الجيش العظيم.المنايا: جمع المَنِيَّةُ وهي: الموت.السَّهْمُ: واحد النَّبْلِ وهو مَرْكَبُ النَّصْلِ، والجمع أسْهُمٌ وسِهامٌ.

فاستدعى ذلك أن يجري حواراً مع الزمان ــ والمقصود بذلك أهله، على طريقة أسلوب المجاز المرسل ــ فجعله كأنه إنسان يقف بجوار خصومه إلا أنه استطاع التغلب عليهم، فعندما وقف بجانبهم وبنى لهم مجداً شامخاً، تبيّن أنه مجد زائف سرعان ما تهاوت أركانه،فلم يبق له أثر، أما بناؤه هو فيما قدمه من أقوال وأفعال فهي الراسخة الخالدة، ثم أشار إلى أنه تغلب على الزمان وشدائده بالصبر والثبات والصمود، كما أنه تفوق عليه أيضاً بالإخلاص ونقاء القلب، والبعد عن الغش والتدليس والخداع.

بالإضافة إلى ذلك فإنه قد وقف في ميدان المعركة وحده رابط الجأش، قويّ العزيمة، وكان سلاحه فيها هو الكلمة الصادقة، والحجة القوية،ثم أشار إلى أنه استطاع أن يهزم الدهر مع عِظم جيوشه، وتنوع شدائده ومصائبه، ولم ينقذ الدهر من يده إلا الموت، وهو السهم القاطع الذي لا يخطئ من انتهى أجله، وأخيراً أشار إلى أنّ الدهر قد تعلّم منه كيف يصرع خصومه.

إن هذه الأبيات قد جسّد فيها الإمام الزمان، وأضفى عليه كثيراً من صفات الإنسان وخصائصه، وظهر ذلك من خلال استخدامه لكثير من الصور المختلفة، منها الاستعارة المكنية في قوله:" بنى الزمان لهم بيتاً وشيده"، حيث شبه الزمان بالباني الذي يبني لخصومه بيتاً، لكنه نفي أن يكون لهذا البناء قيمة، أما بناؤه هو فهو الثابت الراسخ، الذي يجذب الانتباه، ويسرّ الناظر إليه، إنه يريد أن يقول إنّ البيت الذي شيده لهم الزمان، لا يصمد أمام أقواله وأفعاله، بل سرعان ما يتهاوى ويتصدع،

فأقوالهم (أي: البناء) لا تبقى على مرّ الزمان، بينما أقواله هو على العكس من ذلك؛ إذ هي الباقية الخالدة.

وقوله:"هذا الزمان زحمناه"، استعارة مكنية أيضاً، يشخص فيها الزمان، فيجعله وكأنه إنسان يزاحم غيره ويدفعه حتى يحقق بغيته، فاستطاع التغلب عليه، وحقق ما أراد فخضع له وانقاد، وكأنه يريد أن يقول إنّ صوته قد ملأ الزمان والمكان، وأنه مشهور ومعروف للجميع، وهذا يشي بالافتخار وعزة النفس. وقوله:" فذل لنا"، كناية عن سطوته وشجاعته، وقوته وشدة بأسه.

وقوله": وأحفظ الدهر أنّي لا أشاكله فيما تبطن من غش وتمويه"، كناية عن الصدق والوفاء، والالتزام بالعهد، إنه يواصل الحديث عن نفسه، فيبيّن أنه ليس من طبعه الغدر والخيانة، وإنما الإخلاص والوفاء، فإذا ما نسب هذه الأشياء إلى الدهر فهو بذلك يكون بريئاً منها.

وقوله:" أحارب الدهر وحدي" فيه استعارة وكناية، حيث شبه الدهر بإنسان يقوم بمحاربة الآخرين، وجاء قوله:"وحدي" كناية عن شجاعته وتفرده في محاربة الدهر، وكأنه يريد أن يقول إن الدهر قد تكالب عليه،وهو وحده الذي وقف في وجهه، إنّ هذا لا شك يدل على صموده وثباته على مبادئه، وعدم خوفه أو تقهقره؛ لأنه لا يقدر على محاربة الدهر إلا الجرئ الشجاع الذي لا يهاب أحداً، ولا يخشى في الجهر بالحق لومة لائم. كما أنه أراد أن يبالغ في قوة هذا الصمود الذي تحلّى به، فأسند المنفعة إلى الثبات دلالة على أنه هو السبب في النفع على طريقة

المجاز العقلي فقال:" ليس ينفعني إلا الثبات".

وقوله:" تعلّم الدهر مني كيف يطعنني" استعارة مكنية، جاء بها في مواصلة الحديث عن نفسه؛ لإبراز قوته وشجاعته وجرأته أمام الدهر، ولبيان أن الدهر لا يمكن بحال من الأحوال أن ينال منه، وكيف ينال منه وهو الذي قام بتعليمه كيفية التغلب على الخصوم ودحض افتراءاتهم، ومن ثَمَّ فلن يخضع له، ولن يذل ؟ وانظر إلى هذا الاستفهام " كيف يطعنني"، تجد أنه أفاد التعجب والاستنكار والاستبعاد لوقوع هذا الطعن من الدهر له، كما أنه يدّل دلالة واضحة على مدى أنفته وشهامته وكبريائه.

وقوله:"وليس يعجزني عن كسر فيلقه إلا المنايا تفاجيني فتحميه" استعارة مكنية، أتى بها أيضاً لتشخيص الدهر، فجعله هنا كأنه إنسان يقود جيشاً في ميدان المعركة، إلا أنه أشار إلى أنه لا يمكن أن ينتصر عليه بأيِّ حال من الأحوال، ولن يستطيع أن يتمكن منه إلا إذا أتته المنية، وعندئذ يصل الدهر إلى بغيته فيحقق النصر عليه، وكأنه يريد أن يقول إنّ انتصار الدهر عليه مرهون بموته، فالموت هو الذي يحقق له الفوز والنصر، وهذا كله يدل على قوته وشهامته.

وقوله:" إنّ المنايا سهام الله سددها، وليس يخطئ سهم الله مرميه" تشبيه، حيث يشبه فيه الموت بالسهام التي تنطلق من عند الله عز وجل، وبما أنها أطلقت من عنده سبحانه وتعالى فلن تخطئ في تحقيق أهدافها، إنّ الله ــ عز وجل ــ يطلق هذه السهام على من استوفى أجله، وحانت

منيته، وهو بهذا القول يريد أن يؤكد على أنّ الناس مهما يفعلوا معه فلن يثنوه عن صموده وثباته؛ لأنه يوقن بأن لكل أجلٍ كتاب.

وهذا البيت يُعدُّ زيادة تأكيد على ما قاله من ثباتــه ورســوخه، وقوته وشجاعته في سبيل تحقيق ما يدعو إليه من الإصلاح ومحاربة الظلم والفساد.

والإمام في هذا كله استطاع بخياله أن" يُخرج من الصامت صوراً تفيض بالحياة، ويحوِّل المحسوس إلى معنًى، والجماد إلى مدرك وجداني تهتز له النفس، فترى المحسوس المجسَّم، وقد تحوَّل إلى فكرة متموجــة نــنعم بجمالها وقوتها المعنوية"[١].

*** طريقته في الإصلاح، وموقف قومه منها.**

* في هذا المقام نراه يشير إلى كفاحه وصموده في سبيل تحقيق دعوته الإصلاحية، وأنَّ موقف أعدائه منها لا يزيده إلا قوة وثباتاً، يقول:

وإذا أحسَّ عداةُ الفضل مشْيَتَنــا ... قاموا على قدمٍ: هيَّا نُناويه

فأوقفوني شهورًا في مقاومــــةٍ ... نجوتُ منها بعزمٍ هيُبَ ماضيه

وازْددتُ بسْطةَ جاهٍ لم يُهَنَّ بهــا ... سوى مَضيمٍ، ومظلومٍ أُنجِّيه[٢]

---

[١] ــ الأصول الفنية للأدب ص٩٢، د. عبد الحميد حسن. ط: مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة. ط: ١٩٤٩م.

[٢] ــ الديوان: ص١٢، ١٣. نناويه: أصله: نناوئه بالهمز: أي نعاديه، يقال: نَاوَأَهُ مُنَــاوَأَةً ونِــوَاءً: عاداه، نجوت: أي خرجت وخلصت، العزم: الإرادة والقوة، يقال: عَزَم على كذا:أراد فعله وقطــع عليه، الهَيْبَةُ: المهابة وهي: الإجلال والمخافة، البَسْطَةُ: السعة، الجاهُ: القــدر والمنزلــة،يهن: يســتفد منها،الضَّيْمُ: الظلم، وقد ضَامَهُ، فهو مَضيمٌ.

بالتأمل في تلك الأبيات نجد أن الإمام ضمنها عدة كنايات، فقوله:" وإذا أحس عداة الفضل مشيتنا" كناية تتبع أعداء دعوته له، وأنهم لا يغفلون عما يقوم به، ثم تعبيره عن نفسه بأسلوب الجمع" مشيتنا" تجد فيه إيحاءً بالعظمة وعزة النفس، وعلو الهمة، وقوله:"قاموا على ساق" كناية عن الهمة والعزيمة بالتصدي له، والاستعداد للوقوف ضده، وهذا التعبير في الدلالة على هذا المعنى مثله مثل قولهم:" قاموا على ساق" و" شمروا عن ساعد الجدّ".

وقوله:" فأوقفوني شهوراً في مقاومة نجوت منها بعزم" كناية عن مدى صموده وثباته، وأنه لم يضعف أمامهم، ولم تلن قناته، وانظر إلى تنكير كلمة " شهوراً " تجد أنه يدّل على أن المدة التي وقفوا أمامه فيها كانت طويلة، وليست بالقصيرة، وبرغم ذلك فلم يزدد إلا قوة وصلابة، وتصميماً على مواصلة السير في الطريق الذي بدأه.

وقوله:" وازددت بسطة جاه" كناية عن ارتفاع مكانته، وعلو منزلته، وأنّ ذلك كان بسبب وقوفه بجانب المظلوم،ومهضوم الحق، وهذه الكنايات تفصح عن آماله، وتجسد توجهاته، وأنه كان يطالب برفع الظلم عن المظلومين، والوقوف بجانب الحق والدفاع عنه.وقوله:"وازددت بسطة جاه"، بدا فيه تأثره بأسلوب القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى حكاية عن بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ

وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]. ولا عجب في ذلك فالإمام ــ رحمه الله ــ من حفظة القرآن الكريم، وواحد ممن قاموا بتفسير بعض سوره وآياته[2].

* ومن الصور التي رسم فيها المنهج الذي يسلكه، ويعتقد أنه الأصلح والأنسب في النهوض بالبلاد، قوله:

هذا[3] سبيلي خَبَبْتُ السيرَ فيه على رغم الأنوف من البُلْه المعاتيه
ما كنت أسعَى لنفسي في مصالحها جزءًا من الألف من سَعْي لأُنهيه[4]

إن منهج الإمام في الإصلاح كان يقوم على احترام القانون والنظام والعلم والخلق والعدل، وأنَّ من ثمار ذلك سيكون الاستقلال

---

[1] ــ سورة البقرة: آية/٢٤٧.

[2] ــ راجع: تفسير جزء عم للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ط: مصر ــ الجمعية الخيرية الإسلامية، والتفسير المشتهر باسم تفسير المنار.

[3] ــ اسم الإشارة هنا:"هذا" يعود إلى ما تضمنته الأبيات السابقة من الأمور التي يدعو إليها، وكان يأمل أن تتحقق لوطنه، وهي قوله:

وكان لي أملٌ في وضع قاعدةٍ لكل نوعٍ من الأعمال تحويه
ويؤخذُ القومُ طُرًا في مناهجهم أن لا يجوروا عن المشروع أوفيه
حتى يكونَ نظامًا كل سَيْرِهُم بمقتضى الإلف معْ فهمٍ يُزكّيه
ويأخذ العلم والتهذيب مأخذَه من النفوس فتزهو من دراريه
ويصبحُ العدلُ طبعًا في جبِلّتنا ويشهد الكون أنّا من مَواليه
وتستقلُّ بلادي في حكومتها ونمنعُ التركَ مفروضًا نؤدّيه
ويشمل الخِصْبُ أنحاها بجملتها ويُثْري القطرُ قاصيه ودانيه
نقضي ديونًا ونُغْشَى من ينازعها بصوتِ فضلٍ يرج الكلُّ داويه

ثم قال: هذا سبيلي ... الديوان: ص١٤.

[4] ــ الديوان:ص١٥.ومعنى: خببت: أي أسرعت، البله: أي الذين ضعف عقلهم، وغلبت عليهم الغفلة.

والحرية، ونماء الثروة الوطنية، وأنه رجا أن يستعين بـ"رياض" في تحقيق هذا المنهج، وقد غالب الصعاب فغلبها بفكره ورأيه، وهذا كان شأنه قبل قيام الثورة العرابية[١].

والإمام في هذه الصورة يشبه ما يدعو إليه من الأمور التي تنهض بالبلاد من نشر العلم، ومحاربة الجهل، وبذل مزيد من الجهد والعمل، وعدم الركون إلى التقاعس والكسل، بالطريق الواضح المستقيم الذي يسلكه السالك، والذي يصل من خلاله إلى تحقيق مراده، ثم يزيد في هذه الصورة أمراً آخر يدّل على شدة اقتناعه بهذا السبيل،فقال :"خببت السير فيه" فأفاد ذلك أنه لم يمش فيه على مهلٍ أو تخوفٍ، ولكنه أسرع السير؛ لأنه الأحق والأنسب لمثل تلك الظروف التي تعيشها البلاد من انتشار للجهل والظلم، وعدم معرفة الناس بحقوقهم، فكان من نتيجة ذلك رضوخهم للأمر الواقع، وعدم استجابتهم لدعوته، ومن ثمّ لم يسلكوا طريقه.

ثم نراه يؤكد هذا السير السريع في دعوته بتلك الكناية فقال:" على رغم الأنوف من البله المعاتيه" فأشار بهذه الكناية إلى أنّ أعداء الأمة، وهم المناوئون له، والذين يقفون في سبيل تحقيق دعوته، لا يعرفون قيمتها، ولا يدركون أهدافها؛ لأنهم ليس لديهم عقول يفكرون بها، بل هم من البُلْهِ الفاقدين لأدنى شيء من الإدراك والفكر، وعلى الرغم من موقفهم ذلك، فلم يثنوه عنها، ولم يضعفوا قواه، بل زاده ذلك قوة وصلابة.

---

[١] ــ ينظر: محمد عبده أديباً وناقداً ص ٢٥٨.

ثم أضاف شيئاً جديداً لتلك الدعوة التي سلك طريقها، فذكر كناية أخرى في البيت الثاني، فقال" ما كنت أسعى لنفسي في مصالحها جزءاً من الألف" ليشير بقوله:"جزءاً من الألف" إلى مدى اهتمامه بأمور أمته، وأنّ اهتمامه بذلك يفوق اهتمامه بأمر نفسه، وأن مصلحة أمته تعلو مصلحته.

* وعن موقف قومه من دعوته الإصلاحية، نراه يشير إلى مدى أسفه وحزنه بسبب عدم استجابتهم لها، فيقول:

أمّا سبيلي فقد سُدَّت منازعه طبعاً، وعزَّ صعودي في مراقيه[1]

في هذا البيت يفصح عن أنّ الأبواب قد سدت في سبيل دعوته، وأنّه قد طرق كل السبل للوصول إلى غايته، لكن شق عليه الأمر وأصبح عزيزاً. وبثّ هذا المعنى في كنايتين.

الأولى: في قوله:" أما سبيلي فقد سدت منازعه طبعاً" كناية عن عدم مواصلة السير فيما كان يطمح في تحقيقه، ويتمنى وجوده، من الخير وتحقيق الكرامة، وخلو البلاد من الظلم والجور، بالفهم الصحيح، والتوجيه السليم، والكلمة الطيبة.

والأخرى: في قوله:" وعزّ صعودي في مراقيه" وهي كناية عن خيبة أمله فيما كان يأمل في تحقيقه لوطنه ، وجاء بهذه الكناية ليبيّن ويؤكد صعوبة المواصلة في هذا الطريق، فبعد أنّ أُغلقت كل الأبواب في سبيل وصول دعوته إلى قلوب الناس؛ نتيجة لما طبعوا عليه من العناد والجهل،

---

[1] ــ الديوان: ص١٧. ومعنى سدت: أي أغلقت.عزّ:قلّ وشقّ، وصعب واشتد. الصعود: ضد الهبوط، ومعناه: ارتقى. مراقيه: نواحيه ومواضعه..

أصبح الاستمرار في ارتقاء سُلَّمها أمراً بعيد المنال.

* ثم يعقب على موقف قومه من طريقته في الإصلاح، بقوله لهم: إذا كنتم ترفضون طريقتي هذه، فما طريقتكم أنتم فيه حتى أتبعكم فيها ؟ فيقول:

وعُجتُ أسأل ماذا في حقائبكم ... هل ثَمَّ فكرٌ، وفكري لا يوافيه؟

هزوا الرءوس جواباً أي: نعم معنا ... سياسةُ السيف فيها الفصلُ نقضيه

فولولت مُهجتي حزناً على وطني ... وقلتُ خَطْب لعلّي أن أُجلّيه[1]

في هذه الأبيات يجري حواراً بينه وبين مخالفيه في الرأي والاتجاه. فيقول: لقد قلت لهم رافعاً صوتي لعله يصل إلى مسامعهم، ماذا يدور في رءوسكم؟ هل عندكم أفكار رشيدة ، وأراء سديدة ،وأنا ليس عندي شيء منها؟ فجاء الجواب:" هزوا الرءوس" كناية عن العزة والافتخار.

وبالإضافة إلى هزّهم للرءوس قالوا بألسنتهم :"نعم معنا سياسة السيف فيها الفصل نقضيه" فشبه السيف بإنسان يقضي بين الحق والباطل، فهؤلاء القوم قد جعلوا محاكمة السيف في مقابل محاكمة الفكر والعقل عند الإمام، وهذا دليل واضح على التباين بين فكر ومنهج كلٍ من الطرفين، ما هم عليه وما هو عليه، فمنهج أهل الجهل في معالجة الأمور عادة يكون في اختيار طريق العنف والقتل، أما منهج أهل العلم

---

[1] ــ الديوان:ص١٧.ومعنى العَجُّ: رفع الصوت، والوَلْوَلةُ: صوتٌ متتابع بالوَيْل والاستغاثة، وقيل: هي حكاية صوت النائحة. والمُهْجَةُ: الدم، وقيل، دم القلب خاصة، ويقال: خرجت مُهْجَتُهُ أي روحه، ويقال: بَذَلْتُ له مُهْجَتي: أي بذلت له نفسي وخالِصَ ما أَقْدِر عليه.اللسان (مهج)

والفكر فيكمن في تحكيم العقل، وإعمال الفكر، وهذا ما دأب عليه الإمام في معالجة الأمور في هذا الظرف؛ إذ هو العالم المحنك الذي ينظر إلى عاقبة الأمور بعين البصير الخبير.

وفي البيت الثالث قال:" فولولت مهجتي حزناً على وطني" فشبه نفسه بالنائحة التي تنوح على مصاب جلل، وهذا يدّل على مدى حزنه وإحساسه بعظم ما حدث لبني وطنه، من سفك للدماء، وانتهاك للأعراض، ونهب للأموال، وتشريد للنساء والأطفال، كما يدّل على إخلاصه وتفانيه في حب وطنه، ثم بعد ذلك نراه يحاول تخفيف الأمر على نفسه فيصبّرها بقوله:" وقلت خطب لعلي أن أجليه"، أي لعل ما حدث يكون بمثابة غمامة صيف تحلُّ ثم تنقشع، وفي ذلك مواساة لنفسه وتخفيف لآلامها.

* وفي موطن آخر نراه يصور كيفية إعراض قومه عن دعوته، بقوله:

لووا رءوسَهم عَجباً بقوتهم واستكبروا النصحَ أنْ يصغوا لصافيه[1]

فقوله:" لووا رءوسهم"، كناية عن استكبارهم، وعدم الانصياع إلى نصحه، وكان وراء ذلك: اغترارهم بقوتهم وكثرة عددهم.

ونلحظ أنّ هذه الكناية قد استمدها الإمام من القرآن الكريم، ووظفها في سياق يشابه ما وردت فيه، فالقرآن الكريم ذكر هذه الكناية في سياق حديثه عن المنافقين ؛ حيث يقول تعالى في شأنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم

---

[1] ــ الديوان: ص١٨.ومعنى يصغوا: أي يميلوا أو يستمعوا. صافيه: أي قائله المخلص.

مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [1]. فالمنافقون يرفضون الحق ويعرضون عنه؛ استكبارًا، ونفوراً، وهؤلاء يرفضون دعوة الحق أيضاً؛ عُجباً، وتِيهاً، واستنكافاً، وعلواً.

[1] ــ سورة المنافقون: آية/٥.

المبحث الثاني

الصور البيانية التي وردت في سياق حديثه عن الثورة العرابية

* في مقام حديثه عن الثورة العرابية، نراه يكشف لنا عن كيفية قيامها، وما صاحبها من أحداث، كما يشير إلى العلاقة التي كانت بينه وبين رئيس الحكومة" رياض باشا" إبان تلك الثورة، فيقول:

وبينما أنا لاهٍ في محادثتي ... مع المعالي أقول: "الأمر ما فيه"

قامت عصابات جند في مدينتنا ... لعزل خيرِ رئيسٍ كنت راجيه

ذاك الذي أنعش الآمالَ غيرتُه ... وخلَّص القطر فارتاحت أهاليه

قاموا عليه لأمرٍ كان سيّدُهم ... يُخفيه في نفسه والله مبديه

كان الرئيسُ حليفَ العدل منقبةً ... وسيّد القوم يهوَى الجَوْر يأتيه

جرُّوا مدافعَهم صفُّوا عساكرَهم ... نادوا بأجمعهم سَلْ ما تُرجّيه

فنال ما نال وانفضّت جموعُهمُ ... أمّا النظامُ فقد دُكّتْ مَبانيه[1]

في هذه الأبيات يسجّل لنا الإمام بعضاً من مشاهد الثورة العرابية، وأنها قامت في وقت كان يستعين فيه بـ" رياض باشا" في تحقيق منهج الإصلاح الذي كان يدعو إليه، لكن ـ كما يقال ـ تأتي الرياح بما لا

---

[1] ـ الديوان: ص١٥، ١٦. ومعنى: لاه:أي منهمك ومولع بالحديث مع رئيس الحكومة. الأمر ما فيه::هذه جملة محكية تستعمل في مصر عند إتمام الكلام وإرادة الشروع في غيره، نقلاً عن" محمد رشيد رضا"، انظر: الديوان ص٢٦ حاشية رقم ٣١، ٣٧ والعصابة: الجماعة من الناس. العزل: التنحية والإبعاد. أنعش:أنهض وأقام. الآمال: الأمور التي يرجو ويأمل الناس تحقيقها. الغيرة: إثارة حمية النفس لأمر لا ترضاه. الرئيس: هو رياض باشا.حليف: ملازم. المنقبة: الفعل الكريم والمفخرة، والطَّبيعَة والخَليقة، أي:أن العدل كان صفة راسخة في الرئيس لا متكلفا.سيد القوم: أي أحمد عرابي. نال ما نال:أي نال سيد الجند وهو عرابي ما نال من عزل رئيس الحكومة رياض باشا. والفَضُّوا:أي تَفَرَّقُوا.. دكت: أي هدّمت وتصدّعت. مبانيه: أي أنظمته وقوانينه.

تشتهي السفن، فـ" بينما هو يمضي في طريق الإصلاح قامت عصابات الجند، ونادت فيما نادت به بعزل "رياض"، فقضت على النظام والعدل وأشاعت الفوضى"١.

ونلحظ أنّ أسلوب الكناية في تلك الأبيات قد لعب دوراً أساسياً في رسم صورها، فقوله:"وبينما أنا لاهٍ في محادثتي مع المعالي"، نجد أنّ هذه الكناية جاءت لتدّل على عِظم قدر الإمام، وارتفاع شأنه؛ إذ إنها أفادت أنه من جلساء ذوي الجاه والسلطان، ومن ثَمَّ كان اختياره لهذه الصفة:" مع المعالي"، لتكون كناية عن" رياض باشا" رئيس الحكومة إبان تلك الثورة، والتعبير عنه هنا بصفة " المعالي"؛ للدلالة أيضاً على رفعته وعلو مكانته، بالإضافة إلى بيان مدى علاقته به، وأنه يَكِنُّ له كل تقدير واحترام. ومما يدّل على أنّ اختياره لصفة" المعالي" هنا كان مقصوداً، أننا نراه في مقام آخر يصفه بالرئيس، فيقول:

وكنت أنجح قومي في مكانتهِ مع الرئيس لإخلاص بتنويهِ٢

وقوله:" قامت عصابات جند"، كناية عن الأشخاص الذين قاموا بالثورة لإبعاد وتنحية خير الرؤساء عنده، وفي قوله:"خير رئيس"، صفة أخرى جديدة سجلها في حق "رياض باشا"، وهي تدل على منزلته السامية، ومكانته العظيمة لديه؛ لأن حبه لوطنه وإخلاصه له، أحيي الآمال في قلوب أهله، فتعلق الناس به وارتاحوا لوجوده، بالإضافة إلى ذلك فقد كان:" حليف العدل منقبة "، كناية عن حبه للعدل، وسعيه الدءوب في

---

١ ــ محمد عبده أديباً وناقداً ص٢٥٨.

٢ ــ الديوان : ص ١٥.

تحقيقه بين طوائف الشعب، ولم يكن ذلك بالأمر العجيب الغريب عليه؛ لأن هذا متأصل في طبعه، راسخ فيه، وليس صدوره منه متكلفاً.

وقوله: "كان سيدهم، وسيد القوم"، أتى بذلك ليكون كناية عن" أحمد عرابي"، وكنّى عنه هنا بصفة السيادة؛ لأنه هو الذي تقدمهم وتزعمهم في الخروج على رئيس الحكومة، فأصبح سيداً عظيماً لديهم، فكانت هذه الصفة هي الأنسب والأليق في هذا المقام، بينما نراه في مقام الحرب يقول عنه: "وقائد الجند "؛ لأنه لمّا قامت المعركة ضد الإنجليز كان هو قائدهم، فكانت صفة القيادة هي الأحقّ في ذلك.

وقوله": جرُّوا مدافعهم"، كناية عن الثورة والاستعداد لها، و" صفُّوا عساكرهم"، كناية عن التأهب لبدء القتال إذا لم يستجب لمطالبهم ويتنحى عن رئاسة الوزارة.

وقوله:" فنال ما نال"، كنّى به عن أنّ أحمد عرابي قد حقق ما كان يسعى إليه، وهو عزل رئيس الحكومة "رياض باشا"، وقد تنحى عن الحكم حقناً للدماء، وحفاظاً على مقدرات الشعب وثرواته، ثم تفرقت بعد ذلك تلك الجموع الغفيرة التي كانت مستعدة للقتال. انظر إلى التعبير عن تحقيق هذا المطلب وهو التنحي بقوله:" فنال ما نال"، ـــ فكنّى عنه ولم يصرّح به، فلم يقل:" فتنحى"ـــ ، تجد أنه يجسد مدى الصعوبة للوصول إلى تحقيق ذلك، وأنّ العزل لم يكن بالشيء الهيّن، فالذي حدث أمر لا يحيط به الوصف، ومن ثَمَّ لم يفصح عن الذي حققه عرابي، وناله من وراء هذا الخروج.

وقوله: " أما النظام فقد دُكّت مبانيه"، كناية عما أصاب البلاد من

شلل وهدم لكل القوانين التي كانت تنظم شئونها، فبتنحي"رياض باشـــا" عن رئاسة الحكومة تهدّم النظام، وانفرط العقد، وأصبحت الفوضى هـــي السائدة في كل مرافق البلاد. وانظر إلى التعبير بقوله:" فقد دُكّت"، لترى الدَكّ ثُمّ التصدع والهدم لكل شيء كان قائماً، ثم أتى "بقد" وأدخلها على الفعل الماضي؛ لإفادة التأكيد في تحقيق تلك المعاني.

أرأيت كيف قام أسلوب الكناية بتصوير تلك المشاهد، وتجسيدها أتمّ وأوفي ما يكون؟!

ونلحظ في تلك الأبيات مدى تأثر الإمام بالقرآن الكريم، وبـــدا ذلك واضحاً في قوله:

قاموا عليه لأمرٍ كان سيّدُهم يُخفيه في نفسه واللهُ مبديه

فهذا التعبير مقتبس من قوله تعـــالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [1].

* ثم نراه يرسم صورة للاضطرابات والفوضى التي حدثت في الـــبلاد في أعقاب سقوط الحكومة، فيقول:

ثعالبُ الشرّ هبّتْ من مراقدها وأفسدت من قوام العدل باقيه

---

[1] ـــ سورة الأحزاب آية/٣٧.

تفلّتَ الحكمُ من أيدٍ مدبّرةٍ وصار فوضَى شَتيتُ الناس يُجْربه[1]

في هذه الصورة شبه الذين وقفوا ضد "رياض باشا"، وثاروا عليه بالثعالب في المكر والخديعة، ثم زاد هذا التصوير تشخيصاً وتجسيداً فقال: "هبت من مراقدها"؛ ليدّل بذلك على مدى السرعة والإقبال الذي حدث من هؤلاء على نشر الشر، والإفساد في البلاد، فذهب العدل وحلّ محله الظلم.

وفي البيت الثاني: شبه الحكم في ضياعه وفقده بالشيء الذي يملكه الإنسان في قبضة يده، ثم ينفلت منه، وهذا يدّل على مدى الحرص على التمسك بالحكم وعدم التفريط فيه، ولكن عندما يُغلب الإنسان على أمره، ويُضطر إلى تركه؛ فيصبح وكأنه قد خرج من قبضة يده.ثم أشار إلى أنّ الحكم بعد أن كان مستقراً في يد شخص واحد، أصبح فوضى ولم يعرف الناس حينئذ من يمسك بزمام أمورهم.

* وفي موطن آخر نجده يشير إلى أنَّ الثورة العرابية كان من أعظم وأفظع نتائج فشلها، هو طمع الأعداء في ثروات البلاد وخيراتها؛ مما دعاهم إلى احتلالها، يقول:

ولم يزالوا حيارى في ترددهم حتى دهاهم أبو الهيجا بداهيه

وشَبَّ حرباً صَلاها من بني وطني من لا يهاب المنايا أنْ تُغَشّيه[2]

---

[1] ــ الديوان: ص١٦. والمراقد: جمع مَرْقَدُ: أي المضجع، وهبتّ:أي قامت وأسرعت. يقال: هَبَّ من نومه: إذا استيقظ منه، وهَبَّ البعير في السير: أي نشط، و تَفَلَّتَ: أي تخلص.

[2] ــ الديوان: ص١٨، ١٩.ومعنى الحيرة: التردد والاضطراب،يقال رجل: حائر بائر أي متحير في أمره لا يدري كيف يهتدي فيه. وهو حائرٌ وحَيْرانُ: أي تائهٌ من قوم حَيَارَى.دهاهم:أصابهم بداهية،=

في هذا المقام يصور حال القوم وقت هجوم الأعداء عليهم، وأنهم كانوا مضطربين وأصيبوا بالفزع والرعب،وأتى بقوله:" أبو الهيجا"، كناية عن الحرب التي غشيتهم، وأنّ الذين قاموا بها متمرسون، ولديهم خبرة طويلة في فنون الحرب، حتى أصبحت تنسب إليهم، وهم كالأبّ لها، ثم زاد في تشخيص شدة تلك الحرب وقوتها فقال:"بداهيه"، كناية عن زيادة خبرة من قاموا بها، أو أنه شبه تلك الحرب في شدتها وعظمها بالداهية، ثم استخدم كلمة:"دهاهم" ليدل بذلك عن شدة ما أصابهم في هذه الحرب، من قتل ودمار وهلاك. وفي البيت الثاني يواصل الحديث عن أثر هذه الحرب فيجيء بهذه الاستعارة قائلاً:" وشب حرباً"، فيشبه هذه الحرب في اشتعالها وسرعة انتشارها في جميع البلاد بالنار، ثم قال:"صلاها"؛ للدلالة على خطورة هذه الحرب، وأنه قد ذاق مرارتها واحترق بها كل أبناء الوطن، الشجاع قبل الجبان، والكبير قبل الصغير؛ ولذا قال: ...صلاها من بني وطني من لا يهاب المنايا أنْ تغشيه

وهذه الصورة للحرب تشي بالدمار والخراب والفناء لكل شيء.

* ثم يجسّد أثر الحرب على بني وطنه، بقوله:

وسَحَّ كلُّ غنيٍّ ماءَ ثروته كماَ هَمَى دمعُ عيني من أماقيه١

=والداهية: الأمر المنكر العظيم، ويقال رجل داهية: بصير بالأمور. ودهمهم الأمر:أي غشيهم، ودواهي الدَّهر: ما يُصيبُ الناسَ من عظيم نُوَبِه. والهَيْجاءُ: الحرب. شب:أوقد. صلاها: احترق. يهاب: يخاف. تغشيه: تغطيه.

١ ــ الديوان: ص١٩. ومعنى سحّ: أي صبَّ، هَمَى: أي سال، ومُؤق العين ومَأقُها: أي مؤخرها أو مقدمها. اللسان(مأق).

إنه في هذه الصورة يشبه نفاد المال من يد الأغنياء نتيجة ما خلفته الحرب من هزيمة، ثم سلب ما كان عندهم من أموال وأخذها منهم ، بسيلان الدمع الغزير من أماقي العين في النفاد والاستنزاف، وعدم البقاء لأي شيء.ثم إن سيلان دمع العين لا يكون إلا عند وقت ضياع الأشياء الغالية لدى الإنسان ، أو فقدان الشيء العزيز وهلاكه.إنه يريد أن يومئ إلى أنّ هذه الحرب قد استنزفت أموال الأغنياء، سواء بالإنفاق عليها أو سلبها منهم بعد أن وضعت أوزارها، مثلها في ذلك مثل انصباب ماء العين واستنزافه في الأمور التي تستدعي ذلك.

* ثم نراه يشير إلى أنّ الشيء الذي يُذكر لهذه الثورة، ويعد من أبرز إيجابياتها هو اتحاد جميع طوائف الشعب على اختلاف عقائدهم في وجه الغزاة والمحتلين، يقول:

والمسلمون وكل القبط في نهجٍ مع اليهود كأنَّ لا دين يأويه
نادوا بأجمعهم هذي مواطننا وطارق السوء فيها لا نُخَليه[1]

في هذه الصورة يشبه طوائف المجتمع كله من مسلمين وأقباط ويهود مع اختلاف عقائدهم ومذاهبهم ونحلهم، يشبههم في تكاتفهم وتعاونهم واتحادهم في وجه الغزاة والمعتدين، والذود عن الوطن كأنهم أصحاب ملة واحدة؛ إذ إن الوطن يضمّهم، والضرر يعّمهم.

ثم كنّى عن اتحادهم وقوة عزيمتهم، وشدة تماسكهم في وجه العدو

---

[1] ــ الديوان: ص١٩، ومعنى النَّهْج: أي الطريق البيّن الواضح. الطارق: كل آتٍ بالليل،وطَرَق القومَ يَطْرُقُهم طَرْقاً وطُروقاً: جاءَهم نيلاً فهو طارِقٌ، وفي الحديث:" أَعوذ بك من طَوارِقِ الليل إِلا طارِقاً يَطْرُقُ بخير". اللسان(طرق)

بهذه الكناية:"وطارق السوء فيها لا نخليه"، وانظر إلى كنايته عن العدو بـ"طارق السوء"، فجعلهم طوارق ـــ وهم الذين يأتون الناس ليلاً ـــ ، ثم وصفهم بأنهم طوارق سوء، وليسوا طوارق خير،أي أن مجيئهم نكبة عظيمة، ومصيبة كبيرة على البلاد والعباد.

* ثم نجده يرسم لنا صورة لبعض أحداث الحرب التي قامت بين الغزاة وبين جميع فئات الشعب، وكيف كان حالهم وقت مجئ المحتلين إليهم، ثم بيان ما خلفته تلك الحرب من دمار وخراب، فيقول:

وبينما الناس أحزابٌ وأغلبهم ... من المُنيفين يشدو باسم مُسَمّيه

ساق النظامُ على الأشتات عسكره ... فصَبَّحَ التلَّ طَوداً من سَواريه

منّا قتيلٌ، ومنّا هائم جزعاً ... قلبي الجريح فهلاّ من يداويه؟

في موقعِ الشرقِ كانت شرّ هَزْمتهم ... والشرقُ ضأنٌ، وذئبُ الغربِ راعيه[1]

في هذه الصورة نجد أنّ الإمام يصف حال الثوار العرابيين حين فاجأهم العدو بعساكره وجيوشه الكثيفة، فيقول:إنهم لم يكونوا متحدّين على رأي واحد، بل كانوا أحزاباً وفرقاً كل فرقة تنادي بأعلى صوتها على

---

[1] ـــ الديوان: ص٢٢. والأحْزابُ: جمع حِزْب: وهم الطّوائفُ من الناسِ، والحزب: كلُّ طائفة هَواهُم واحدٌ. وكل قوم تشاكلت أهواؤهم وأعمالهم فهم أحْزابٌ. المنيفين:أي ثائرو الشَعر، يقال: نَفَى شَعَرُ فلان يَنْفي: إذا ثارَ وذهب وشَعِثَ وتساقط، والنّفى شعرُ الإنسان ونَفى: إذا تساقط. يشدو: ينادي رافعاً صوته،يقال:شَدا بصوته شَدْواً: مَدَّه بغناء أو غيره.النظام: الإنجليز. الأشتات:أي: المتفرقين، وقومٌ شَتّى: مُتَفَرّقون.التلّ: المكان المعروف بالتلّ الكبير. الطَّوْدُ: الجبل العظيم، سواريه:الجيوش الكثيرة. الهائمُ: المتحيِّرُ،يقال: هامَ في الأمر يَهِيم:إذا تحيّر فيه، وهام فلان هيما وهيمانا: خرج على وجهه في الأرض لا يدري أين يتوجه، وهام في الأمر: تحير فيه واضطرب، وذهب كل مذهب. الجَزَعَ: هو الحُزْنُ والخَوف،والجَزُوع: ضد الصّبُورِ على الشرِّ، والجَزَعُ: نَقِيضُ الصَّبْر.

أتباعها وأشياعها، وهم على هذه الحالة انقض عليهم الإنجليز بجيوشهم الكثيفة، وأحاطوا المكان من كل ناحية،وغطت خيولهم وفرسانهم المكان كله، حتى أصبحوا لكثرة عددهم وعتادهم كالجبل العظيم، ثم كانت النتيجة المؤلمة أشد الألم لتلك المعركة، فمن الناس من قُتل، ومن لم يُقتل، أصبح خائفاً مضطرباً لا يدري إلى أين يذهب ؟ولا إلى أي مكان يتجه؟ إنها كانت شرّ هزيمة لأهل الشرق الذي أصبح كالضأن، والقائم علي شئونه هم ذئاب الغرب.

إن هذا التصوير لتلك الحرب قد ورد فيه عدة تشبيهات وهي: تشبيهه العسكر الذين أحاطوا بمكان التل الكبير في ضخامتهم وكثرتهم بالجبل العظيم، وتشبيه أهل الشرق في ضعفهم وهزيمتهم من جيش الأعداء بالضأن، بالإضافة إلى ذلك فقد برز في هذا التصوير ظاهرة أسلوبية تكررت عنده وهي: إضافة المشبه للمشبه به أحياناً، وأحياناً أخرى يضيف المشبه به للمشبه، فقوله:" قلبي الجروح"، شبه قلبه بالجريح الذي يبحث له عن علاج يداويه، نتيجة ما أصابه من ألم وحزن، وهو من إضافة المشبه للمشبه به،وأما قوله:" وذئب الغرب راعيه"، فقد شبه الغرب في القوة والغلبة والافتراس بالذئب، وهو من إضافة المشبه به للمشبه، وهذا يدّل على تصرفه البارع في استخدام الأساليب وتوظيفها في مكانها اللائق بها، وحسن التصرف في توجيهها.

*وعن الزعيم الذي قام بالثورة العرابية وهو"أحمد عرابي"، نرى الإمام قد رسم له في شعره صورتان:

الأولى: جاءت في قوله:

وقائدُ الجندِ شهمٌ في مكالمةٍ ... أشلُّ قلباً إذ الهيجا تُنادِيهِ

يستطلعُ الرأيَ والتدبيرَ في حُلم ... من المنامات جلَّ الله هادِيهِ

ما كان أحسنهُ شيخاً بزاويةٍ ... يغشَى النساءَ بوعظٍ كان يُمليهِ[١]

في هذه الأبيات يسخر من قائد الجيش الذي قاد تلك الحرب وهو "أحمد عرابي"،وأشار إلى أنه لا ينفع في قيادة الجيوش؛ لأنه لا يصلح أن يكون قدوة للجنود البواسل؛ إذ إنه جبان يهاب الموت، كما أنّ قراراته ليست صائبة، وآراءه ليست سديدة؛ لأنه يستوحيها من الأحلام والرؤى، ومن ثَمَّ فإنّ مكانه ليس في قيادة المعارك، وإنما مكانه في الوعظ؛ لأنه لا يجيد إلا فنّ الكلام.

وقد بثّ هذا المعني من خلال عدة كنايات، فقوله:"وقائد الجند"، كناية عن" أحمد عرابي"، ونلحظ أنه كنّى عنه ولم يصرّح باسمه،ـ كما صرّح باسم" رياض باشا"، وكما صرّح باسم تلميذه الشيخ:"محمد رشيد رضا" في شعره ـ احتقاراً له، وتقليلاً لشأنه، وسخريةً منه.

وقوله: "شهم في مكالمة"، كناية عن فطنته وذكائه، وقوة تأثيره في

---

١ ـ الديوان: ص٢٠، ٢١. والشَّهْمُ معناه: الذَّكيُّ الفُؤاد المُتَوَقِّدُ الجَلْدُ.والشَّلَلُ: يُبْسُ اليَدِ وذَهابُها، وقيل هو فَساد في اليد. والهَيْجُ والهِياجُ والهَيْجا والهَيْجاءُ: الحرب بالمد والقصر؛لأنها مَوْطِنُ غَضَبٍ.والحُلْمُ: عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء،وهو والرؤيا سواء ولكن غَلَبت الرؤيا: على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحُلْمُ: على ما يراه من الشر والقبيح. الغشاءُ: الغِطاءُ، تقول غَشَّيْت الشيءَ تَغْشِيةً: إذا غَطَّيْته. والزاوية:المسجد غير الجامع ليس فيه منبر ومأوى للمتصوفين والفقراء. المعجم الوسيط(زوي)

الناس عند الحديث معهم؛ حيث إنه لا يجيد إلا هذا.وقوله:" أشلُّ قلباً إذ الهيجا تُناديه"، كناية عن الجبن والخور والضعف عند الحرب؛ حيث إنه ليس شجاعاً ولا جريئاً.

وقوله:" يستطلعُ الرأيَ والتدبيرَ في حُلم من المنامات"، كناية عن عدم التفكير السليم، وكذلك عدم التعقل في اتخاذ القرار،ونتيجة لعدم التأني والتريث في اتخاذ القرارات الصائبة، فإنها تصدر منه وكأنها وليدة الأحلام التي يكون مصدرها الشيطان، وليس الرؤى التي مصدرها الهادي إلى سواء السبيل.

وقوله:" ما كان أحسنه شيخاً بزاوية يغشى النساءَ بوعظ"، كناية عدم صلاحيته في اتخاذ القرارات الصائبة عموماً، والقرارات المصيرية كقرارات الحروب وقيادة الجيوش خصوصاً، ومن ثَمَّ فإنّ مكانه هو وعظ النساء ليس إلا.

* وأما الصورة الثانية: التي ذكرها له، فهي صورته بعد انتهاء الحرب، وفشله الذريع في عدم نجاحها، وفراره من ميدانها، وعن ذلك يقول:

وقائدُ الجند وَافانا بلحيتـــه ... يَسيلُ رُعباً وثوبُ العار كاسيه

وسلَّمَ السيفَ واستجدَى بغفلته ... عفواً من الحَنقِ المغزُو خُدَيويه

تَخَوَّفَ الذُّلَ فاستدعَى مطيَّتَهُ ... رَكْضاً إليه فوافاه مُوافيه[1]

---

١ ــ الديوان: ص٢٣.ومعنى وافانا: أي أدركنا.والعارُ: هو كل شيء يلزم به سُبَّة أو عيب.استجدى: أي طلب.بغفلته: أي بعدم فطنته،يقال رجل غُفْل:أي هو الذي لم يجرِّب الأمور. والحَنَقُ: شدة الغيْظُ. ركضاً: أي مسرعاً: يقال رَكَضَ الدابةَ يَرْكُضُها رَكْضاً: ضرَب جَنْبَيْها برجله لتسرع، ورَكَضَ الرجلُ: إذا فَرَّ وعَدا.

في هذه الأبيات يقدم الإمام للقارئ صورة أخرى للقائد الذي قاد تلك الحرب الفاشلة، والتي كانت نتيجتها أكل الأخضر واليابس، وخراب البلاد وهلاكها، فرسم له صورة تنبعث منها رائحة الهزيمة المنكرة،والاستسلام البغيض، وكأنه يقول له: أين شموخك وكبرياؤك، يا من لويت رأسك عجباً بقوتك، ولم تستجب لمن أخلص في النصيحة لك، وقلت: إن سياسة السيف هي القول الفصل؟!

وهذه الصورة قد أتى فيها الإمام بعدة كنايات ساعدته على إبراز المعنى الذي يقصده، انظر إلى قوله:"وقائد الجند وافانا بلحيته"، تجد الكناية المعبرة عن مدى فراره من أرض المعركة، وهو يجر ذيل الخيبة والندامة، والذلة والمهانة، ولم يكتف بالإشارة إلى فراره وجريه وراءهم، بل قال:" يسيل رعباً"، كناية عن شدة خوفه وفزعه.

ثم انظر إلى هذا الهجاء اللاذع:"وافانا بلحيته"، وكيف خصّ اللحية من بين جميع أوصافه؟ لا شك أنّ هذا الوصف قد زاد الصورة سخريةً واستهزاءً؛ لأن صاحب اللحية عادة ما يكون شجاعاً مقداماً لا يهاب الموت، ولا يفرّ من المواقف الصعبة خاصة الحروب؛ لأنّه سيحقق إحدى الحسنيَيْن: إما النصر، وإما الشهادة. إنها رمز للشجاعة والشهامة،والقوة والجرأة، والثبات والصمود.

ثم انظر إلى هذا التشبيه الرائع:" وثوب العار كاسيه"، حيث شبّه العار الذي كاساه في الدلالة على الإحاطة والشمول بالثوب الذي يغطي صاحبه، وهو من إضافة المشبه به للمشبه، فزاد الصورة تشخيصاً وتجسيداً.

ثم انظر إلى قوله:" وسلّم السيف واستجدى بغفلته عفواً"، إنّ هـذه الكناية جاءت لتدّل على مدى استسلامه، واعترافه بالهزيمة، ولم يقف بـه الأمر إلى هذا الحدّ، بل أسرع في الجري إلى الخـديوي يلـتمس عفـوه وصفحه؛ لأنه:" تخوف الذّل" فكنّى بذلك عن رعبه وجبنه؛ مما دفعه لأن يذهب إليه مسرعاً؛ خوفاً على نفسه، وحرصاً منه على الحياة.

إنّ هذا الهجاء الذي ذكره الإمام في حق هذا القائد، كان نتيجة لعدم استجابته لتحذير الإمام من عواقب الشطط بالدعوة الوطنية إلى مـا وراء الغاية المأمونة، ولقد قال له ولأتباعه:" إنّ هذا الشغب قد يجر إلى الـبلاد احتلالاً أجنبياً يستدعي تسجيل اللعنة بسببه يوم القيامة، فقـال عـرابي مبتسماً: أبذل جهدي في ألا أكون مورد هذه اللعنة"[١].

وهجاء الإمام عموماً ـــ سواء كان هجاء اجتماعيـاً أو سياسـياً أو أخلاقياً ـــ من مميزاته، أنه يعدُّ هجاء عاماً؛ لأنه " لا يصوِّر سوى العيوب العامة والرذائل، وإن أمطر ضرباته على ظهر أشخاص اتخـذهم هـدفاً للسخرية أو الاحتقار"[٢].

* ثم نراه ينتقل إلى وصف حال الوطن بعد انتهاء الحرب، فيقول:

أمَّا البلادُ فواغَمّي لحالتهـا ... لم يبقَ فيها سوى أمرٍ وتنبيـه

واستنزفتْ طلباتُ الجند ثروتَها ... واستأسَدَ الذئبُ واشتدّت عوادِيه

حكامُ أريافِها هاضُوا بأجمعِها ... واستفرغُوا من فِقارِ الظَّهرِ شَوكِيه

---

[١] ـــ محمد عبده للعقاد ص١١٦.

[٢] ـــ محمد عبده أديباً وناقداً ص٢٦٢.

مهاجرو الثَّغر زادوا في مصائبها قومٌ جياع وباع العقل شاريه[١]

في هذه الأبيات يصف الإمام الحالة التي وصلت إليها البلاد بعد فشل تلك الحرب وصفاً دقيقاً، يجعل القارئ وكأنه يعايش تلك الأحداث، فنراه يتحسر على الوطن وأهله، وما آل إليه حال البلاد والعباد، فيبدي أسفه وحزنه الشديد لتلك الحالة التي تدمي القلوب، فالغزاة أصبحوا يصولون ويجولون في شتَّى ربوع البلاد، فيعطوا الأوامر لأهلها، والويل كل الويل لمن يخالف تلك الأوامر، أو لا يقوم بتنفيذها، عند ذلك يرى التنكيل والعذاب أعظم ما يكون.

بالإضافة إلى ذلك فإن طلبات هؤلاء الغزاة أثقلت كاهل الجميع، بل

---

١ ــ الديوان: ص٢١. ومعنى الغَمُّ: الكرب أو الحزن يحصل للقلب بسبب ما، ويقال اغتم الرجل: أي حزن واحتبس نفسه عن الخروج، و الغُمَّةُ: الكُربة وتستعار للظلمة والضيق والهم. ومعنى التنبيه:أي النذر، أي لم يبق في البلاد سوى أوامر الجند تنفذ بالقوة، ونذرهم التي يسموها تنبيهات، (نقلاً عن تعليقات: محمد رشيد رضا على الديوان ص٢٨ حاشية رقم:(٧٣)، استترف: أي نفد وفني.اشتد: أي قوي وزاد. ومعنى هاض: الهَيْضُ: الكَسْرُ بعد جُبورِ العظْمِ، وهو أَشدُّ ما يكون من الكسر، يقال: هاضَ الشيءَ هَيْضاً: كسَره، وهاضَ العظمَ يَهِيضُه هَيْضاً فانْهاضَ: أي كسَره بعد الجُبورَ، أَو بعدما كاد يَنْجَبِرُ، وهاض فلان الشيء: كسره وألانه. استفرغوا: أي أخلوا، يقال فرغ المكان: أخلاه، وفرغ الإناء:صبه. فقار الظهر: هي عظام السلسلة العظمية الظهرية الممتدة من الرأس إلى العصعص، وعددها في الإنسان ثلاث وثلاثون: سبع في العنق، واثنتا عشرة في الظهر بين الأضلاع، وخمس في البطن، وخمس في العجز، وأربع في العصعص. والشوكي: نسبة إلى الشوك أو إلى الشوكة، والحبل الشوكي أو النخاع الشوكي: جزء الجهاز العصبي المركزي داخل القناة الفقارية. المعجم الوسيط(فقر ــ شوك)، ومعنى البيت: أنهم كسروا عظام الأهالي وانتقوها، أي: أكلوا ما فيها من النخاع، حتى النخاع الشوكي الذي لا حياة بدونه، أي: لم يبقوا للفلاح شيئاً يسد به الرمق. والثَّغْرُ: موضع المَخافَة من فُروج البُلْدانِ، وكُلُّ فُرْجَةٍ في جبل أَو بطن واد أَو طريق مسلوك، و مهاجرو الثغر: المقصود بهم الجنود الذين هاجروا من الإسكندرية إلى الأرياف. ينظر الديوان: ص٢٨، حاشية ٧٥، ٧٦.

وقضت على جميع خيرات البلاد؛ لأن شوكتهم قد اشتدت وقويت، وصاروا أسودًا بعد أن كانوا ذئاباً ضعيفة، ثم بالغوا في نهب تلك الثروات والقضاء عليها، أن وصل بهم الأمر أنهم لم يتركوا شيئاً لأحد يسدُّ به رمقه، ومما زاد الطين بلّة عودة الحراس الذين كانوا يقومون بحراسة مداخل البلاد في الإسكندرية، ورجوعهم إلى أماكنهم في الريف وهم لا يملكون شيئاً، كل ذلك أضاف إلى أهل البلاد ضيقاً شديداً علاوة على ما هم فيه، وزادهم هماً فوق همهم.

وقد ظهر في هذه الأبيات عدة كنايات ساعدت على تصوير المعنى الذي بثّه من خلالها، فقوله:"لم يبق فيها سوى أمر وتنبيه"، كناية عن الذلة والمهانة، والسمع والطاعة للأعداء، وقوله:" واسترفت طلبات الجند ثروتها"،كناية عن نفاد وفناء ثروات البلاد وخيراتها.

ثم زاد في تشخيص تلك الحالة فجاء بهذه الاستعارة المكنية فقال:"واستأسد الذئب واشتدت عواديه"، فشبه العدو بالذئب المستأسد الذي قوي ضرره، واشتد خطره، وازدادت ضراوته، فلم يستطع أحدٌ مهما كانت قوته وشجاعته أن يقف في وجهه.

وقوله:" حكام أريافها هاضوا بأجمعها، واستفرغوا من فقار الظهر شوكيه"، كناية عن النهب والسلب، والاستيلاء على جميع أموال أهل البلاد، حتى إنهم لم يتركوا لهم ما يسدون به الرمق، وجاء بالنخاع الشوكي الذي لا حياة للإنسان بدونه، ليرمز به إلى عِظم هذا الاستيلاء، وأنه قد أتى على كل شيء من الغالي والنفيس. وقوله:" مهاجرو الثغر"، كناية عن الجنود الذين تركوا الإسكندرية وذهبوا إلى الأرياف.

وقوله:" باع العقل شاريه"، استعارة مكنية، شبه العقل بالشيء الذي يباع ويشترى؛ للدلالة على فَقده وبطلانه، وتوقفه عن التفكير، لوضع الحلول المناسبة للخروج من تلك المصائب والأزمات التي حلّت بالبلاد. فهذا العقل الذي غُيّب ثم عجز عن وضع حلّ لمشاكل البلاد، وصار صاحبه لا يفرق به بين الصواب والخطأ، والخير والشرّ، والحق والباطل، والحسن والقبيح، أصبح وكأنه استغنى عنه بالبيع.

المبحث الثالث

الصور البيانية التي جاءت في سياق حديثه عن حبه لدينه ووطنه

* في سياق حديثه عن بيان حبه لدينه، ووفائه لوطنه، نجد أنّ ذلك قد بدا جلياً في مواطن كثيرة من شعره، منها ما ورد ذكره آنفـاً في ثنايـا المبحثين السابقين.

ومنها أيضاً ما ذكره حول إبراز دور كلامه، وأثره في جلاء الحـق وإظهاره، وبيان الباطل ودحضه، فيقول:

وصغتُ من كَلِمي شمساً تكاشفُهم هذا المصابُ الذي حلَّت مرازيه
فأنكرَ الجهلُ ضوءَ الشمسِ ضاحيةً وظلمةُ الغَيِّ وارتْ ما تواريه[1]

إنه في هذه الصورة يصور جهره بالحق والـدعوة إلى التمسـك به،في مقابل نبذ الباطل والبعد عنه بالشمس الساطعة التي تمحو الظـلام وتزيله.

وفي البيت الثاني أراد أن يزيد في تشخيص تلك الصورة فاستخدم الاستعارة المكنية، فقال:" فأنكر الجهل ضوء الشمس ضـاحية"، فشـبه الجهل بإنسان ينكر هذا الضوء البيّن الواضح لكل ذي عينين ، وكأنـه يريد أن يقرر أنّ ضوء الشمس الساطع لا ينكره إلا من جعل الله علـى بصره غشاوة، كما أن الحق لا يجحده إلا أصحاب الهوى والضـلال، ثم نجد في اختياره للفظة" الجهل" دلالة على مدى غباء أصحابه،ثم شبه الغي بالظلمة في الستر وعدم الكشف، فكما أنّ الظلمة تستر النور فإنّ الغـي يستر الحق، وهو من إضافة المشبه به للمشبه.

* وإذا كان الإمام هنا قد شبه كلامـه بالشـمس وضـوئها في

---

١ ــ الديوان ص١٨. ومعنى:حلت أي: نزلت، مرازيه: معايبه. الغـي: الضـلال والخيبـة.وارت: أخفت.

الوضوح والظهور، فإنه قد شبهه في موطن ثانٍ بالدرر الغالية الثمينة، يقول:

وكنت أسهر ليلي في مطالعة ونثرِ دُرٍّ لتبيانٍ أوَفّيه

أُنعِمْ به من سُهادٍ كنت آلفُهُ وأبغضُ الشمس تُنْثَى عن وصاليه[1]

إنه في هذين البيتين أراد أن يصور للقارئ عن مدى اجتهاده في البحث عن الحق، فجاء بهذه الكناية اللطيفة "وكنت أسهر ليلي في مطالعة"، ثم عندما يعثر عليه ينثره للناس فيصير كالدرر النفيسة فأتى بتلك الاستعارة الجميلة "ونثر در" إنه يشبه عذوبة منطقه، وقوة حجته في بيان الحق بالدرر الثمينة،إنه يصف حالته وولعه الشديد بمطالعة العلم، وحرصه على مراجعته بالليل، وذلك من أجل خدمته للناس، وبيان مصلحتهم، فاقتضى ذلك السهر طول الليل، وعدم الركون إلى الراحة أو النوم،مما جعله يكره طلوع النهار؛لأنه يقطع عليه سعادته ومتعته الروحية في الكتابة والمطالعة.

إننا نراه في هذا التشبيه لكلامه ومدى أثره، والذي شبهه بأمور كثيرة، فجعله مرة كالشمس الساطعة، ومرة ثانية كضوئها، ومرة ثالثة كالدر المنثور.أي أن المشبه هنا قد اتحد والمشبه به قد تنوع، وهذا التصوير المتنوع للشيء الواحد فيه دلالة واضحة على مدى غزارة علمه، وقدرته البيانية، ووفرة الأساليب لديه، وتوظيف ذلك عند الحاجة إليه.

* ومما له علاقة قوية بتلك الصورة التشبيهية سالفة الذكر، ما

---

[1] ــ الديوان ص١٣.السهاد: اليقظة والأرق. تنثى: تنأى.

ذكره عن أثر أقواله وأفكاره في استنهاض الهمم، وإيقاظ العزائم، يقول:

وتُنهِضُ العزمَ أقوالي ولا عَجَب شرابُ حقٍ وروحُ الفضل ساقِيه

أقاومُ الصّعبَ في سيري فأُخضِعُه ولا حسام ولا رمح أُروِّيه

وإنما الفكر يُغني نفسَ صاحبِه عن الجيوش إذا صحَّت مَباديه[1]

إن الإمام في هذه الصورة يشبه أقواله التي تسقي العزم وتقويه، بشراب الساقي الذي ينعش شاربه،فكما أن الشراب ينعش الشارب، ويمده بالطاقة والحيوية،فإن الأقوال تقوي العزم، وتشحذ الهمم،إنها صورة قائمة على التشبيه الضمني، وقد تفنن في صياغتها فجعل أقواله التي تدافع عن الحق كأنها شراب ينبغي على القائمين بالإصلاح أن ينهلوا منها، ويتمسكوا بها، ويسيروا على نهجها؛ لأن قائلها قد سهر الليالي، وعانى كثيراً في البحث عنها.بالإضافة إلى ذلك فإنه قد بذل في سبيلها الغالي والنفيس؛ حيث إنه ــ نظراً لتوطين نفسه على الصبر، وترويضها على تحمل المصاعب ــ قد قاوم الصعب حتى وصل إلى ما تصبو إليه نفسه من العثور على ما يصلح حال البلاد، وأن ذلك يكون بالفكر لا بالحرب.

وانظر إلى هذه الكناية التي أتى بها في هذه الصورة ،وهي قوله "وروح الفضل ساقيه"، فكنى بها عن نفسه، ودلت على أنه من أهل الفضل، وأنه من الذين يدعون الناس إلى الخير، ويناصرون الحق،ثم انظر إلى قوله" أقاوم الصعب في سيري فأخضعه"، تجد أنه يشبه إخضاعه للصعب، وتذليله له بفكره وثاقب نظره، بإخضاع العدو بالسيوف

---

[1] ــ الديوان: ص١٥.

والرماح للشجاع، وجاء بالفعل المضارع "أقاوم" للدلالة على مدى شجاعته واستمراره عليها، وصبره في مقاومة الصعاب حتى تُذلل وتخضع للفكر، ويكون مثله في ذلك مثل البطل الذي يقاوم العدو بسيفه ورمحه، ويظل يقاومه حتى يخضع له، ثم يعزز ما يقصده من دعوته إلى الإصلاح بالفكر الصحيح قائلاً: إن الفكر السليم يغني عن الجيوش، وفي هذا دلالة قوية على أن ثورته لم تكن ثورة دموية، سلاحها الرمح والسيف، وإنما هي ثورة فكر، سلاحها العقل السليم، والمنطق القويم، والعزيمة القوية، والصبر على الشدائد، في محاربة الجهل والظلم.

وهذه الصورة التشبيهية القائمة على التشبيه الضمني، تُعدّ من وسائل التصرف في الصياغة، والتي إن دلت على شيء فإنما تدل على عبقرية الإمام، وقدرته التعبيرية الفذة، وتوجيه الملكة البيانية لديه حيثما شاء.

* ونرى الإمام في موطن ثالث يشبه كلامه في النَيل من الأعداء، وتغلبه عليهم بالجيش، يقول:

وسُقْتُ من منطقي جَيْشاً أروّعُ به قلبَ الكَمَيِّ فألهيه وأدهيه[1]

في هذه الصورة نجد الاستعارة المعبرة، حيث شبَّه الكلام الذي يخرج من فيه في قوته وشدته بالجيش الذي يهز كيان عدوه المدجج بالسلاح والعتاد، إنه في تلك الحرب لم يقف موقف المتفرج عليها، وإنما

---

١ ــ الديوان: ص٢١. ومعنى أروّع به: أي أخوف، والرَّوْعُ: الفَزَعُ والخَوْفُ. والكَمِيُّ: لابس السلاح المقدام الجريء والشجاع المُتَكَمِّي في سلاحه؛ لأنه كَمَّى نفسه: أي ستَرها بالدِّرع. ألهيه: أشغله وألعب به، يقال ألهاه: شغله،ولها بالشيء: لعب به. وأدهيه: أي أصيبه، يقال ما دهاك: أي ما أصابك.

أخذ يدافع بالكلمة القوية، والحجة الدامغة، والمنطق السليم. ولعله يشير بذلك إلى أنه كان يحارب كما يحارب الجنود في ميدان المعركة، ولكنّ سلاحه كان الكلمة القوية التي تصنع في الأعداء ما لم يصنعه السلاح.

* ومن الصور التي ذكرها في تقريب المخالفين له في الآراء والأفكار والاتجاه، قوله:

مزجتُ بالهزلِ جَدّي علّ يعجبُهم ... كوالدِ الطفلِ يُلهيه بمرضيه

وأُعجِمُ القولَ طوراً في مناصحَتي ... كساحرٍ أم مصروعاً ليرقيه[1]

إنّ الإمام في البيت الأول يقول: إن حاله مع مخالفيه في ملاينة الخطاب معهم، وتلوينه لهم، وخلطه الهزل بالجد، لعلّ ذلك يدفعهم إلى عدم النفور، ويساعد على استمالتهم لما أدعوهم إليه، كحال الوالد مع ولده في استمالته له بما يقرّبه إليه، فالوالد يبذل كل ما في وسعه ليستميل ولده إليه، وذلك بما يتفق وهواه، إنه في هذه الصورة يشبههم بالأطفال الصغار؛ سخرية بهم واستهزاء، وكأن عقولهم عقول أطفال، وهذا يتفق مع ما سبق أن وصفهم به من قلة الفكر والفهم، بل ونفي ذلك عنهم، في قوله:

حديثُهُمُ صَخَبٌ، أسرارهم لَجَبٌ ... لا عَقْلَ، لا فهْمَ، أين النُّجْحُ نبغيه؟[1]

---

[1] الديوان: ص١٨. ومعنى علّ: أي لعلّ، والأعجم: أي الذي لا يفصح ولا يبين، يقال: أَعْجَمْتُ: أبهمت، والعَجَمِيُّ: مُبْهَمُ الكلامِ لا يتبين كلامُه، وتقول: هذا رجل أَعجميٌّ: إذا كان لا يُفْصِحُ كان من العَجَمِ أو من العَرَب، والأَعْجَمَ الذي في لسانه حُبْسَةٌ وإن كان عربيّاً، والأَعْجَمُ الذي لا يُفْصِحُ ولا يُبَيِّنُ كلامَه وإن كانَ عَرَبِيَّ النَّسبِ، والأعجَم من الموج الذي لا يتنفّسُ، أي: لا يَنضَح الماءَ ولا يُسمعَ له صوت.

إنه يبذل قصارى جهده مع من لووا رءوسهم؛ استكباراً ونفوراً، مما يقوله ويدعو إليه.

وفي البيت الثاني: يصور ما يصنعه معهم من حيلٍ في مناصحته لهم ــ لعل ذلك يشفيهم مما هم فيه من كبر وغيّ وضلال ــ بصورة ما يقوم به الساحر مع المسحور، والراقي مع الذي أصابته علة الصرع، من تجربة كل الحيل والوسائل التي تساعد على شفائهم مما أصابهم من سحر أو صرع.إنه هنا يأتي بوسيلة أخرى من وسائل الاستمالة، وهي عدم الإفصاح والإبانة،"وأعجم القول"، ولعله بذلك يوحي بأنه استخدم في دعوتهم الإشارات أو التمتمات كما يتمتم الساحر بكلام لا يفهمه المسحور أو المصروع،أو أنه قد استخدم معهم الكلام في السرّ كما استخدمه في العلن، أو أنه قد يأتي تارة بالكلام الأعجم المتلعثم غير الواضح كما يأتي بالبليغ الفصيح من القول تارة أخرى، وكأنه بذلك يريد أن يصرّح بأنه قد عانى معهم أشد المعاناة، وأنه أتى بوسائل عديدة؛ لكي يصل من خلال ذلك كله إلى إقناعهم فيستجيبوا له.إنه الإبداع والتفنن في ابتكار الطرق والوسائل التي تقرّب الشخص من الآخرين.

* كما تجلى حبه لوطنه أيضاً في دفاعه عن الحق، ومحاربته للظلم، فمن ذلك قوله:

وقمتُ للحقّ أجلو من مَطالعِه ... نورًا وكان غَمامُ الظُلم يُخْفيه

---

[1] ــ الديوان: ١٧.والصَّخَب: العالي، واللَّجَب: الصياح وارتفاع الأصوات واختلاطها.

وأبرزَ الفكرُ كنزًا من جواهره وزيّن النطق باهيها بحاليه[1]

إنّ الإمام في هذه الاستعارة التمثيلية يشبه الظلم الذي يستر الحق ويغطيه ويحجبه عن الظهور، بالغمام الذي يستر الشمس فلا يظهر ضوءها، فاحتاج ذلك منه إلى أن يشمّر عن ساعد الجدّ لإزاحة هذا الظلم، وكشف نور الحق، فالذي دفعه إلى القيام بذلك هو المطالبة بالحق والدفاع عنه؛ ولذا فقد جاء بتلك الكناية المعبرة " وقمت للحق"؛ ليؤكدّ هذا المعنى الذي أراده، إنه قام للحق، ومن أجل الحق، ولم يدفعه للقيام بذلك أي أمر سواه، ثم انظر إلى اختياره للفعل"قام" تجد أنه أتى بالتعبير به؛ ليدل دلالة واضحة على مدى اهتمامه البالغ بالوقوف إلى جانب الحق، والانتصار له مهما كلفه ذلك؛ لأن الإنسان لا يقوم ولا يهتم إلا بالشيء الذي يراه يستحق الجهد الذي يُبْذلُ في سبيله.وهذا يعني مدى كراهيته للظلم والغبن، ومدى حبه للحق والعدل.

* ومن الصور التي عبّر بها عن رفضه للظلم، قوله:

وصحْتُ بالظلم لا تطرقْ مغانيَنا "رياضُ" راعٍ وعقلي من حَواريه

فَخَرَّ كلُّ غشومٍ واجفًا صَعِقًا وارتجَّ كل ظلومٍ خيفة الـ"هيه"[2]

---

[1] ــ الديوان: ص١٣.

٢ ــ الديوان: ص ١٣. ومعنى: خرَّ: أي سقط. الغشوم: الظالم أشد الظلم،واجف:أي اضطرب وسقط من شدة الخوف، ومعنى:صعق: أي وقع على الأرض مغشياً عليه، يقال: صعق الرجل: أصابته الصاعقة، وغشي عليه وهلك.ارتج: تحرك واهتز، وارتج البحر: اضطرب. هيه: اسم صوت كان يردده رياض باشا دائماً بغير قصد، وأدخل عليه حرف التعريف"ال" لقصد لفظه، ومعنى خيفة الهيه: أي خوفاً من ذلك الوزير.

فقوله:" وصحت بالظلم"، كناية عن شدة رفضه للظلم والوقوف ضده، والاستغاثة من أجل دفعه، وجاء بصيغ المبالغة "غشوم ــ ظلوم" للدلالة على كثرة الظلم وانتشاره، وأنه قد بلغ مبلغاً عظيماً، كما أشار إلى أنّ الظلمة كانوا يخافون أشد الخوف من رياض باشا؛ حتى بلغ بهم الأمر أنهم كانوا عندما يسمعون صوته، يتساقطون على الأرض من شدة الخوف والفزع.

وقوله:" فخر كل غشوم واجفا صعقا"، كناية عن سقوط الظلمة الذين تجاوزا الحد في ظلمهم، وهزيمتهم شرَّ هزيمة، ويدّل على ذلك أنه لم يكتف في تصوير رعبهم وسقوطهم بقوله" فخر"، حتى أضاف إليه أمرين آخرين؛ لتأكيد هذا المعنى، وهما" واجفاً ــ صعقاً". ثم جاء قوله:"وارتج كل ظلوم"؛ ليكون كناية عن شدة الخوف والرعب، والقلق والاضطراب الذي يصيب أي ظالم عند سماعه صوت رياض باشا.

* وقوفه بجانب بني وطنه

* ومن الصور التي تبرز حرصه على وطنه، ما ذكره حول وقوفه بجوار أهل وطنه في محنتهم، وقضاء مصالحهم، يقول:

حوائجُ الناسِ هالاتٌ على قمري ... وليس في الناس إلا قائلٌ هيه

وينجحُ الجَدُّ مني في وقايتهم ... ويقشعُ الظلم مذعوراً طواغيه

ولا جزاءٌ أُرجّيه سوى ألمٍ ... يَلُمُّ بالقلب والإنجازِ يَشفيه[1]

---

١ ــ الديوان: ص٢٢. ومعنى هالات: الهالة: الدارة حول القمر، أو دائرة من الضوء تحيط بجرم سماوي. هيه: كلمة تقال للاستزادة. الوقاية: الحفظ والصيانة،يقال: وقى الله فلاناً السوء: أي كلأه منه وحفظه وصانه. يقشع:أي يكشف ويزيل. مذعوراً، الذعر: الفزع والخوف. الإنجاز: أي قضاء الحوائج.

في هذه الأبيات يشير إلى أن أهل وطنه قد لجأوا إليه بعدما نزلت عليهم المصائب، وألّمت بهم محن الظالمين؛ ليزيلها عنهم ويقيهم شرَّ هؤلاء الجاثمين على صدورهم، فكان يسعى بشتى الوسائل لتحقيق ذلك لهم، وبرز من خلالها استخدامه لعدة صور:

منها الاستعارة التصريحية في قوله:" ولا جزاء أرجيه سوى ألمٍّ يلم بالقلب والإنجاز يشفيه"، حيث شبَّه نفسه بالمريض الذي يؤلمه عدم قضاء حوائج الناس، ثم شبَّه إنجاز مطالبهم وتحقيقها بالطبيب الذي يشفي هذا المريض مما ألَّم به من تعب ومرض.

ومنها الكناية في قوله:" حوائج الناس هالات على قمري"، كنَّى بذلك عن مدى اعتنائه واهتمامه بشئون الناس، وأنهم أحاطوا به من كل جانب؛ ليقضي لهم حوائجهم.ومنها الكناية أيضاً في قوله:" ويقشع الظلم مذعوراً طواغيه"، كناية عن أنَّ وقوفه إلى جانب أهل وطنه؛ لإزاحة الجور عنهم، وإشاعة العدل والحق بينهم، وتبصيرهم بحقوقهم، يسبب الذعر والخوف لأهل البغي العتاة، والظلمة الطغاة.

حبه لدينه

إنَّ الإمام ــ رحمه الله ــ يعد مثلاً يُحْتذَى به في مدى حرصه على الدين، وإخلاصه له، وخوفه عليه، وليس هناك أدَّل على ذلك مما ذكره وهو في مقام الإحساس بدنو أجله؛ إذ يقول:

ولستُ أُبالي أن يُقالَ محمدٌ ... أبَلْ أمِ اكتظَّتْ عليه المآتمُ

ولكنّه دينٌ أردتُ صلاحَه ... أحاذرُ أن تقضِي عليه العَمَائمُ

وللناس آمالٌ يُرَجُّون نَيلَهـــا إذا متُّ ماتتْ واضمحلَّتْ عزائمُ
فيا ربِّ إن قدَّرْتَ رُجْعَى قريبةً إلى عَالَـمِ الأرواحِ وانْفَضَّ خَاتَمُ
فبارِكْ على الإسلامِ وارزقْه مُرشدًا «رشيدًا» يُضيء النهجَ والليلُ قَاتِمُ
يماثلُني نُطقًا وعلمًا وحِكمةً ويُشبه منِّي السيفَ والسيفُ صارم
ويُخرِجُ وحيَ اللهِ للناسِ عَارياً عن الرأي والتأويلِ يهدي ويُلهَمُ[1]

قبل التوقف أمام هذه الأبيات بالتحليل والتعليق ينبغي أن أشير إلى أن الإمام نظمها وهو على فراش الموت، وفيها يتجلى التسليم بقضاء الله وقدره في أبهى صوره؛ حيث إنه لا يخاف الموت وهو يودع الحياة، ولكن

---

١ ــ الديوان: ص٣٠. ومعنى أبالي:أهتم. أَبَلٌ: أي شفي من مرضه، يقال: بَلَّ من مرضه يَبِلُّ بَـلاً، وأَبَلٌ: برأَ وصَحَّ، والبِلُّ: الشِّفَاء(اللسان ــ بلل). اكتظت: كثرت، يقال: اكتظ المكانُ بالناس: أي امتلأ،واكْتَظَّ المَسيلُ بالماء: ضاقَ من كثرته. المَأتم: المَأتم في الأصل كل مُجْتَمَعٍ من رجال أو نساء في حُزْن أو فَرَحٍ،ثم خصَّ به اجتماع النساء للموت.أحاذر:أخاف، والحِذْرُ والحَذَرُ: الخوف، والتحذير:التخويف. نيلها: تحقيقها وإصابتها، يقال: نَالَ خيرًا يَنالُ نَيْلا: أصاب. اضمحلت: أي ذهبت، واضمحل الشيء: ذهب. والعَزْمُ: ما عَقَد عليه قَلْبُك من أَمْرٍ أَنَّكَ فاعِلُه، ويقال: عَزَم على كذا: أي أراد فِعْلَه. الرُّجْعَى: أي الرُّجوعَ. والفَضُّ خاتَمَ: يقال: فَضَضْتُ الخاتم عن الكتاب: أي كسرتُه، وكل شيء كسرتُه فقد فضَضْتَه، وفَضَّ الخاتَمَ والخَتْمَ: إذا كَسره وفَتحه، والفَضُّ الشيءُ: انكسر.وانفضاض الخاتم: المقصود به هنا مفارقة الروح للبدن، وهذا التعبير يعدُّ من إشارات الصوفية(نقلاً عن محمد رشيد رضا. ينظر: الديوان ص٣٢، حاشية رقم٤). النَّهْجُ: الطريقُ البَيِّنُ الواضحُ، يقال: نَهَج الطريق: وضح واستبان، والمنهاج: الطريق الواضح.قاتم:القُتْمة: سواد ليس بشديد، قَتَمَ يَقْتِم قَتامةً فهو قاتِمٌ، والقتام: الغبار. الصَّارِمُ: الصَّرْمُ: القَطْعُ البائنُ، والصارمُ: السيف القاطع، ورجل صارِمٌ: أي ماضٍ في كل أمر محكم وغيره.عارياً:العُرْيُ: خلافُ اللُّبْسِ، يقال:عَرِيَ من ثَوْبه يَعْرَى عُرْياً وعُرْيَةً فهو عارٍ. ورجل عارٍ: من قومٍ عُراةٍ، والإلْهامُ: ما يُلْقى في الرُّوعِ،والإلهامُ أيضاً: أَن يُلْقِيَ اللّهُ في النفس أمراً يَبْعَثُه على الفعل أَو الترك، وهو نوع من الوَحْي، يَخُصُّ الله بـه مَـنْ يشـاء مِـنْ عباده،ويقال: أَلْهَمَه اللّهُ خَيْراً : لَقَّنَه إيّاه،واستَلْهَمه إيّاه : سأله أَن يُلْهِمَه إيّاه.

الذي يخاف عليه في تلك اللحظات الأخيرة من عمره، هو دين الله عز وجل الذي ما أعظمه من دين ! وهو يحتاج إلى رجال يحملون همّه مثل الإمام ــ رحمه الله ــ، ثم يتضرع إلى الله عز وجل بالدعاء أن يُوفق تلميذه الشيخ" محمد رشيد رضا"، لحمل راية الإصلاح من بعده، والمحافظة على نقاء هذا الدين وجماله، وإظهار يسره وسهولته، وبيان الحق من الباطل، والحسن من القبيح، وجاء اختياره للشيخ" رشيد" ليكون خليفة له؛ لأنه ــ كما قال الإمام ــ يتميز بالجرأة والشجاعة، ويشبهه في الفصاحة والبيان، وغزارة العلم ،واستنارة الفكر.

وقد برز في هذه الأبيات عدة صور متنوعة أسهمت في تجسيد المعنى المراد، فمنها الكناية في قوله:" ولست أبالي أن يقال: محمد أبلٌ أم اكتظت عليه المآتم"، كنّى بذلك عن التسليم والرضا بقضاء الله وقدره، وعدم جزعه، وأنه يستوي عنده الحياة والموت.

وقوله:" أحاذر أن تقضي عليه العمائم"، مجاز مرسل علاقته المجاورة، أو الحالية؛ حيث أطلق المحل وأراد الحالّ فيه، فأطلق" العمائم" وأراد أصحابها، وتحذيره من قضاء أصحاب العمائم على الدين قد يكون" بتركهم إقامة كتاب الله وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في هدايته، والدعوة إليه على بصيرة وهي الحجة، وباتباعهم للبدع والعادات المضيَّعة له، وقد يكون بعداوتهم للعلوم والفنون ــ التي هي قوام الدول والأمم ــ باسم الدين، فيكون المشتغلون بها بُعَداء عن الدين معتقدين أنه آفة العمران، بل يمرقون منه ويعادونه، وأصحاب العمائم عاجزون عن الجمع لهم بين مصالح الدنيا والدين، فلا يبقى على تقاليد الدين إلا أفراد

لا تقوم له بهم قائمة"[١].

ونلحظ هنا أن تحذير الإمام أتى متوافقاً مع دعوته، التي قامت أساساً على إعمال العقل وتطوير الفكر، ورفض التقليد وعدم الجمود، ومن ثَمَّ جاء تحذيره من الانغلاق والجمود من خلال قوله:" تقضي عليه العمائم".

وقوله:" وللناس آمال يرجّون نيلها إذا مت ماتت، واضمحلت عزائم"، فيه استعارة وكناية، حيث شبه الآمال بإنسان يحي أو يموت، وكأنه يريد أن يقول: إنّ آمال الناس حيَّة بحياته،أي أنّ الآمال تستمد حياتها من حياته هو، ومن ثَمّ إذا مات ماتت، وهذه كناية عن عظم مكانته عند الناس، وشدة تعلقهم به، وجاء قوله:" واضمحلت عزائم"،كناية عن توقف تلك الآمال بعد موته، وعدم تحقيقها لأصحابها.

وقوله:" فيا رب إن قدرت رجعى قريبة إلى عالم الأرواح"، كناية عن انتهاء الأجل، وفيه تذكير بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾[٢]، و﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾[٣]، وقوله: وانفض خاتم"، انفضاض الخاتم كناية عن مفارقة الروح للجسد، وهي من إشارات الصوفية[٤].

وقوله:" فبارك على الإسلام وارزقه مرشداً رشيداً"، كناية عن موصوف، وهو تلميذه الشيخ" محمد رشيد رضا"، وقوله:" يضيء النهج

---

[١] ــ الشيخ: محمد رشيد رضا، من تعليقاته على ديوان الإمام محمد عبده ص٣١، حاشية رقم٢.

[٢] ــ سورة العلق الآية /٨.

[٣] ــ سورة النجم: الآية/٤٢.

[٤] ــ محمد رشيد رضا، الديوان: ص٣٢، حاشية رقم٤.

والليل قاتم"، استعارة تمثيلية، حيث يشبهه في كشف الطريق، وبيان الحق من الباطل، و إزاحة الضلال و البدع، بالمصباح المنير الذي يضيء للناس في شدة الظلام، فيبيّن لهم الحق، ويزيل الشُبَّه، وكل ما يتمناه من تبيين للناس طريق الهدى والرشاد، والخير والصواب. وهذه الأماني كلها إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى شدة حرصه وخوفه على الدين، وتكشف عن مدى انشغال فكره وروحه بالإسلام، واهتمامه بالعلم وقضاياه حتى آخر نفسٍ من أنفاسه الزكية الطاهرة.

وقوله:" ويشبه مني السيف، والسيف صارم"، تشبيه، حيث شبهه بالسيف في الصرامة والقوة، والفصل بين الحق والباطل،"والسيف صارم"، فيه بيان لوجه الشبه، وقوله:" ويخرج وحي الله للناس عارياً عن الرأي والتأويل يهدي ويلهم[1]"، تشبيه، حيث شبه توضيح وحي الله وبيانه للناس بالإنسان العاري في الوضوح والظهور وعدم اللبس.

إنَّ هذا كله إن دلَّ على شيء، فإنما يدلُّ على مدى حرص الإمام على الأمة فضلاً عن خوفه على الدين، وهذا الأمر ينتاب كل مخلص يحب دينه ووطنه، فمع أنَّه أوشك على الموت، وشارف على الرحيل إلا أنه لم ينس حبهما، بل ويدع بالتوفيق والسداد لمن يخلفه في القيام على أمرهما.

---

[1] ــ هذا البيت ــ كما قال: تلميذ الإمام ــ يعدُّ آخر نص صريح منه في الكشف عن اتباعه لمذهب السلف في تفسير القرآن الكريم، ــ وهو ينبوع الاعتقاد وأصل الدين ــ والرأي الذي ينهى عنه هو: اتباع الهوى لتأييد المذاهب المقلدة، أو طلب المنافع الباطلة. ومراده من التأويل الذي ينهي عنه كذلك هو: الخروج في تفسيره عن مدلول النظم العربي البليغ، وما يخالف المحكم الذي هو أم الكتاب، أو ما أجمع عليه أهل الصدر الأول. ينظر:الديوان ص٣٢، حاشية رقم٨.

* ومما له صلة بحبه للدين، ما ذكره وهو يهنئ أحد العلماء ــ الذين ينتهون في نسبهم إلى آل البيت ــ بالشفاء من المرض، في قوله:

صَحَّتْ بصحتِك الدنيا يا ابن الوَصِيِّ أمير المؤمنين عليِّ[1]

هذا البيت قد ذكره الإمام مهنئاً به أحد علماء الشيعة وهو: السيد الشريف علي بن محمد بن مجد الدين، الذي ينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب ــ كرَّم الله وجهه ــ ، وذلك بعد قيامه من فراش المرض، وقوله:" صحت بصحتك الدنيا"، فيه استعارة مكنية، حيث شبَّه الدنيا بالإنسان المريض الذي شُفي من مرضه، أي أن الدنيا كلها كانت مريضة حين مرض، ولمّا شفي شفيت الدنيا بأسرها، وهذا التعبير فيه مبالغة تكشف عن مدى حبه لآل البيت، وتقديره لهم، كما أن فيها دلالة على عِظم مكانة الممدوح، وتقدير الناس له، وحبهم له؛ لأنه من آل البيت، وينتسب إليه.

[1] ــ الديوان: ص٣٥.

الخاتمة

بعد الانتهاء ـــ بحمد الله تعالى ـــ من تناول الصـــورة البيانيـــة في ديوان الإمام محمد عبده ـــ رحمه الله ـــ أستطيع أن أسجل أبرز ما توصل إليه البحث في النقاط التالية:

١ـــ أنه اعتمد على الصورة في تصوير مشاعره وأحاسيسه.

٢ـــ أنه" أجاد في استخدام صوره؛ إذ جاءت وثيقة الصلة بعاطفته، مترجمة عن فكره"[١].

٣ـــ أنَّ الصورة عنده هي الصورة عند عامة العلماء، أي أنه نحـــا فيها منحى التقرير، وتأثر في بعضها بالقرآن الكريم.

٤ـــ أنه استطاع من خلال الصورة أن يصور مدى إحساسه بحـــب وطنه، وتفانيه في خدمة أهله، وحرصه على دين الله ـــ تعالى ـــ وخوفـــه عليه، حتى وهو يودع الحياة.

٥ـــ أنَّ الصورة كانت تتنوع في السياق الواحـــد بـــين: تشـــبيه، واستعارة، وكناية.

٦ـــ أنَّ السياق الواحد كانت تتعانق فيه الألوان البيانية المختلفـــة لرسم الصورة الكلية المراد تصويرها، ومن ثَمَّ لا يمكن أن يدرس لون منها ـــ كالتشبيه مثلاً ـــ بمعزل عن بقية الأنواع الأخرى.

٧ـــ توصل البحث إلى أنه تصرّف في استعماله لأسلوب التشـــبيه، فاستخدم فيه التشبيه المضاف، أي إضافة المشبه للمشبه به أحياناً، وأحياناً

---

[١] ـــ محمد عبده أديباً وناقداً ص٢٥٩.

أخرى إضافة المشبه به للمشبه، كما أنه أتى فيه بالتشبيه الضمني أيضاً.

٨ــ لوحظ أنه في استعماله لأسلوب الاستعارة قد أكثر من استخدام الاستعارة المكنية دون غيرها، وما ذلك إلا لأنها أقدر على تجسيد المعاني وتشخيصها، وبثّ الحياة والحركة في الأشياء الجامدة.

٩ــ لوحظ أيضاً أنه لم يستخدم المجاز المرسل إلا قليلاً.

١٠ــ لوحظ أنه أكثر من استخدام أسلوب الكناية بالمقارنة ببقية الأساليب الأخرى، وما ذلك إلا لأن هذا الأسلوب فيه سعة لذكر معانٍ عديدة تندرج تحت الصورة الواحدة.

هذه هي أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وهناك نتائج أخرى مبثوثة في ثناياه.

والحمد لله أولاً وأخيراً،،،

الباحث

د/ أحمد فريد أبو سالم

ثبت المصادر والمراجع

١ــ الأصول الفنية للأدب د. عبد الحميد حسن. ط: مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة. ط: ١٩٤٩م.

٢ــ الأعلام، خير الدين الزركلي. ط: دار العلم للملايين ــ بيروت. ط: الخامسة عشرة.ط: ٢٠٠٢م.

٣ــ الإمام الشيخ محمد عبده في أخباره وآثاره د. رحاب عكاوي ــ أعلام الفكر العربي ــ ط: دار الفكر العربي ــ بيروت.ط: الأولى:ط: ٢٠٠١م.

٤ــ الإمام محمد عبده وأثره في تجديد الفقه والفكر الإسلامي د. كمال الدين عبد الغني المرسي.ط: المكتب الجامعي الحديث ــ الإسكندرية ــ مصر.ط: الأولى.ط: ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠١م.

٥ــ الإمام محمد عبده ،عبد الحليم الجندي، سلسلة أعلام الإسلام.ط: دار المعارف ــ مصر.ط: ١٩٧٩م.

٦ــ الإمام محمد عبده مائة عام على رحيله، أعمال ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها مكتبة الإسكندرية في ٤ــ٥/١٢/٢٠٠٥م، تحرير/ إبراهيم غانم، وصلاح الدين الجوهري.ط: دار الكتاب المصري ــ القاهرة، ودار الكتاب اللبناني ــ بيروت. ط: الأولى: ١٤٣٠هـ ــ ٢٠٠٩م.

٧ــ تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، السيد محمد رشيد رضا.ط: المنار ــ مصر، ط: ١٣٤٤هـ.

٨ــ تفسير جزء عم للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ط: مصر ــ الجمعية الخيرية الإسلامية. بدون تاريخ.

٩ــ تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار ــ السيد رشيد رضا ــ ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٧٣م.

١٠ــ ديوان الإمام محمد عبده، تحقيق/ ماجد صلاح الدين حسن. ط: دار الفكر الإسلامي ــ القاهرة . ط: الأولى : ١٩٩٩م.

١١ــ ديوان الحماسة لأبي تمام ــ ط: القاهرة: ١٣٣١هـ ــ ١٩١٣م.

١٢ــ ديوان: محمد حافظ إبراهيم، ط: دار الكتب المصرية. ط: الثانية: ١٣٥٦هـ ــ ١٩٣٧م.

١٣ــ ديوان: النابغة الذبياني، تحقيق/ حَمدُو طمَّاس. ط: دار المعرفة ــ بيروت. ط: الثانية:١٤٢٦هـ ــ٢٠٠٥م.

١٤ــ رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده، د.عثمان أمين.ط: مكتبة الأنجلو المصرية. ط: الثانية.ط:١٩٦٥م.

١٥ــ زعماء الإصلاح في العصر الحديث، أحمد أمين. ط: مكتبة النهضة المصرية ــ مصر.ط: الثالثة.ط: ١٩٧١م.

١٦ــ سلسلة الأعمال المجهولة لمحمد عبده تحقيق وتقديم د. علي شلش، ط: مكتبة رياض الريس للكتب والنشر.ط:١٩٨٦م.

١٧ــ شرح ديوان الحماسة، أحمد بن محمد الحسن المرزوقي، تحقيق/ أحمد أمين، وعبد السلام هارون. ط: مطبعة لجنة التأليف والترجمة

والنشر ــ القاهرة. ط: ١٣٧١هـ ــ ١٩٥١م.

١٨ــ الصورة الأدبية في القرآن الكريم، د. صلاح الدين عبد التواب. ط: مكتبة لبنان ناشرون ــ الشركة المصرية العالمية للنشر ــ لونجمان ــ مصر. ط: الأولى: ١٩٩٥م.

١٩ــ الصورة في شعر بشار بن برد، د.عبد الفتاح صالح نافع.ط: دار الفكر للنشر والتوزيع ــ عمان.ط: ١٩٨٣م.

٢٠ــ عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده، عباس محمود العقاد. ط: دار الكتاب العربي ــ بيروت.ط:١٩٧١م.

٢١ــ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد. ط: السعادة ــ القاهرة .ط: الثالثة ط: ١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٣م.

٢٢ــ عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق د/ طه الحاجري، د/ محمد زغلول سلام، ط: المكتبة التجارية ــ مصر.ط: ١٩٥٦م.

٢٣ــ لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط: دار صادر ــ بيروت.ط: الأولى

٢٤ــ محمد عبده أديباً وناقداً، د.السيد تقي الدين السيد.ط: نهضة مصر.ط:١٩٨٩م.

٢٥ــ محمد عبده . عباس محمود العقاد. ط: المكتبة العصرية ــ بيروت . بدون تاريخ.

٢٦ــ مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الــرازي، تحقيق/ محمود خاطر.ط: مكتبة لبنان ناشرون ــ بيروت.ط: ١٤١٥هــ ــ ١٩٩٥م.

٢٧ــ مذكرات الإمام محمد عبده، عرض وتحقيق/ طاهر الطناحي ــ كتاب الهلال ــ سلسلة شهرية. ط: دار الهلال. بدون تاريخ.

٢٨ــ المستدرك على معجم المؤلفين/ عمــر رضــا كحَّالــة. ط: مؤسسة الرسالة ــ بيروت. ط: الثانية: ١٤٠٨هــ ــ ١٩٨٨م.

٢٩ــ معجم المؤلفين / عمر رضا كحَّالة. ط: الترقي ــ دمشــق. ط: ١٩٥٧م.

٣٠ــ المعجم الوسيط، الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة ــ قام بإخراجه/إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، وغيرهما.ط: المكتبــة الإسلامية للطباعة والنشر ــ استانبول ــ تركيا. بدون تاريخ.

فهرس الموضوعـــات

الموضـــــــوع	الصفحة
المقدمة	٥٢٣
التمهيد.	٥٢٧
النقطة الأولى: وتدور حول الإمام من ناحية: اسمه ونسبه، ومولده ونشأته ... الخ .	٥٢٩
النقطة الثانية :وتتضمن الحديث عن وصف الديوان محل الدراسة.	٥٤٢
الحديث عن الأشعار.	٥٤٢
منَ الحكم التي قالها الإمام	٥٥٧
المبحث الأول: الصور البيانية التي جاءت في سياق حديثه عن تصوير آلامه وهمومه وهو في السجن.	٥٤٥
ـ حديثه عن نفسه، وأهل زمانه.	٥٥٥
ـ طريقته في الإصلاح.	٥٥٩
المبحث الثاني: الصور البيانية التي وردت في سياق حديثه عن الثورة العرابية	٥٦٧
ـ وصف حال الوطن بعد انتهاء الحرب.	٥٧٥
المبحث الثالث: الصور البيانية التي جاءت في سياق حديثه عن حبه لدينه ووطنه	٥٨٥
الخاتمة.	٦٠١
ثبت المصادر والمراجع .	٦٠٣
فهرس الموضوعات .	٦٠٧